الفصل الأول

السياسة والمجتمع

(١)

فتح العرب للشام والحقب[١] الأولى

(أ) فتح العرب للشام

تقع الشام في قلب الشرق الأوسط وسط العالم القديم على أبواب آسيا الغربية وشواطئ البحر المتوسط، وهي سهل ساحلي يمتد من خليج إسكندرونة في تركيا شمالا إلى طور سيناء جنوباً، ومن البحر المتوسط غربا إلى بادية الشام شرقاً، والشام بذلك تشمل سوريا الحالية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن. وتجري فيها أنهار صغيرة أهمها العاصي المتجه إلى الشمال في سوريا، والليطاني المتجه إلى الجنوب، وبَرَدي المتجه إلى الشرق مكوناً بساتين دمشق المسماة بالغوطة، ونهر الأردن الذي يصب في البحر الميت، وفي أطراف الأردن الشمالية بحيرة طبرية. وبجنوبي دمشق هضبة حوران. وفي شمالي الهضبة الشرقي منطقة اللجأ وفي جنوبيها الشرقي جبل الدروز. وتنساب الشام شرقي حوران والأردن في بادية الشام المتممة لصحراء العرب. ومن قديم يُزرع بها القمح والزيتون والتين والفواكه، وبها في الشمال أشجار النقل المختلفة وهيأ ذلك أهلها لكي يعرفوا الاستقرار من أعتق الأزمنة، كما هيأ البلاد لاندفاع بدو الجزيرة العربية إليها، إذ تفيض عسلاً ولبنا. وقد اندفعوا إليها في شكل هجرات كبيرة، لعل أقدمها هجرة الأموريين إلى شماليها حوالي منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد، وثلثها– وربما صحبتها– هجرة الكنعانيين أو الفينيقيين إلى السهل الساحلي. وقد استولى تحوتمس

---

(١) انظر في تاريخ الشام القديم وزمن الدولة الأموية والولاة العباسيين كتاب تاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفيليب حتى (الترجمة العربية نشر دار الثقافة ببيروت) وراجع في فتوحها وتاريخها الإسلامي تاريخ الطبري وابن الأثير، ومروج الذهب للمسعودي والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي والمغرب (قسم الفسطاط) لابن سعيد وتاريخ ابن خلدون وتاريخ الدولة العربية وسقوطها لقلهوزن وتاريخ العرب– مطول لفيليب حتى (الترجمة العربية) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (نشر دار العلم للملايين).

obeikandi.com

فرعون مصر حوالي سنة ١٤٤٠ ق.م على جزء كبير من الشام، وظل الأموريون والفينيقيون خاضعين لمصر نحو قرن إلى أن شُغلت عن ممتلكاتها في الشام لعهد إخناتون بسبب ثورته الدينية المعروفة. وتفد على الشام هجرة كبيرة من الجزيرة العربية هي هجرة الآراميين إلى الشام الأوسط ومنطقة دمشق وهجرة العبرانيين إلى فلسطين.

ولم يكوّن الفينيقيون لأنفسهم دولة في السهل الساحلي بل ظلوا جماعات صغيرة لكل جماعة أميرها في طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء وصور وعسقلان وغزة، وكانوا شعبا بحريا تجاريا، وازدهرت تجارتهم بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد، وكونوا لهم مستعمرات في أسبانيا ومراكز تجارية في كورسيكا وسردينيا وصقلية وكريت وساموس في اليونان. وقضى على النشاط التجاري لهذا الشعب الفتح الأشوري في القرن الثامن قبل الميلاد. وكون العبرانيون لأنفسهم مملكة أورشليم في القرن العاشر ق.م وفيه بلغت ذروتها لعهد داود وسليمان، ثم أخذت في الضعف حتى قضى عليها الآشوريون في القرن الثامن ق.م ودمر بختنصر أورشليم في القرن السادس. ق. م وجلاهم عنها إلى بابل، حتى إذا سقطت دولة بابل سنة ٥٣٩ ق م. أذن كورش لمن يريد منهم العودة إلى أورشليم أن يعود. وظل الشام منذ هذا التاريخ تابعًا للدولة الفارسية إلى أن فتحه الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٤ ق. م. وتولت بعده شئونه دولة السلوقيين اليونانية حتى انتزعه منها الرومان في القرن الأول ق. م. ولما انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية كان الشام من نصيب الإمبراطورية الشرقية وظل تابعاً لبيزنطة حتى استخلصه العرب منها.

وقد استطاع العرب الشماليون أن يقيموا مملكتين أو إمارتين لهم في أطراف الشام: إمارة النبط في شرقي الأردن أقاموها منذ القرن الثالث ق. م وكان لهما عاصمتان: بطرا في الجنوب بشرقي الأردن وبُصرى في الشمال بالقرب من دمشق، وكانت تتكلم العربية في أحاديثها اليومية بينما كانت تكتب نقوشها بالخط الآرامي، وقضى الرومان على استقلالها سنة ١٠٦ للميلاد وضموها إلى دولتهم الرومانية٠ والمملكة الثانية مملكة تدمر شمالي بادية الشام، وبلغت أوجها في القرنين الثاني والثالث للميلاد وخاصة في عهد أميرها أذينة، وقد نصبه الرومان ملكا على سوريا جمعيها وعادوا في عهد زوجته الزباء، فقضوا عليها وعلى الإمارة في سنة ٢٧٣ للميلاد، ولم تلبث قبيلة

عربية أن شقت طريقها إلى منطقة حوران جنوبي دمشق، وهي قبيلة الغساسنة واستطاعت أن تقيم لها إمارة، ولم تكن لها عاصمة مستقرة، فقد كانت تنتقل من مكان إلى آخر، فمرة تتخذ عاصمتها في الجولان ومرة في جلق أو الجابية، وكانت موالية لبيزنطة وتحارب في صفوفها ضد إيران وعرب الحيرة. ومن أهم أمرائها الحارث بن جبلة وهزيمته للمنذر صاحب الحيرة يوم حَليمة بالقرب من قنسرين سنة ٥٥٤ مشهورة وفيها خر المنذر صريعاً. وما نصل إلى أواخر القرن السادس الميلادي حتى تتمزق وحدة هذه الإمارة، ويتوزع أجزاءها غير أمير. ونستطيع أن نميز بينهم النعمان بن الحارث ممدوح النابغة وأخاه عمرو ممدوح حسان، ولحق منهم الفتوح الإسلامية جبلة بن الأيهم وأسلم، ثم تنصر والحق ببيزنطه.

وحين دخلت الجزيرة العربية جميعها في دين الله الحنيف وانضوت تحت لوائه أحست دولة بيزنطة في الشام ودولة الفرس في العراق بأنها قوة ينبغي أن يُدر خطرها. وهو ما جعل أبا بكر الصديق يبادر بتجهيز الجيوش لتجاهد في سبيل الله ونشر دعوة الإسلام الدولتين الكبيرتين قبل أن تتآزرا على حرب الإسلام والمسلمين في الجزيرة شرقا وشمالا. وكان الفساد قد استشرى في حكم الدولتين واستشرى معه ظلم الرعية والبغي الأثيم واستولى المسلمون من الفرس سريعا على جنوبي العراق. وتوالت انتصاراتهم عليهم، وبادر الصديق فسير في سنة اثنتى عشرة للهجرة جيشين لحرب البيزنطيين أو الروم في الشام: جيشا بقيادة يزيد بن أبي سفيان إلى البلقاء في شرقي الأردن، وجيشا بقيادة عمرو بن العاص إلى الجنوب الشرقي من فلسطين، وكتب إلى خالد بن الوليد في العراق أن يلحق بجيشي الشام، فلحق بهما وتولي قيادتهما، وفتح بُصرى شمال البلقاء. ونازل الروم في أجنادين بفلسطين بين بلدتي الرملة وبيت جبرين الحاليتين، وهي أول معركة كبرى بين العرب والروم. وفيها سحقهم سحقا ذريعا، وتقدم إلى الشمال حتى دمشق وظل محاصرا لها حتى استسلمت. وجمع الروم صفوفهم في اليرموك أحد روافد نهر الأردن فدمرهم خالد وجنوده ولم تقم لهم بعد ذلك في الشام قائمة وفتحت بلدانها جميعاً أبوابها للعرب المنتصرين. وبذلك استولى العرب على الشام في نحو سنتين.

وخرج عمر بن الخطاب في سنة ١٦ إلى الجابية- جنوبي دمشق على مسيرة يوم منها- وهي إحدى عواصم الغساسنة كما مر آنفا، وبها عقد مؤتمرا ضم ولاة الشام وقوادها لتنظيم الإدارة في ديارها، وفتحت له القدس أبوابها، وأمن عمر النصارى بها ورهبانها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وحريتهم الدينية، والتمسوا منه أن يُخلى القدس من اليهود وأجاب ملتمسهم ولم يبق بها يهودي. وقسم الشام إلى أربعة أجناد: جند الأردن وجند فلسطين وجند دمشق وجند حمص، وزيد فيما بعد لعهد الأمويين جند قنسرين والعواصم والثغور. واشتهرت سنة ١٨ للهجرة باسم سنة طاعون عمواس، وكانت بلدة بين نابلس والرملة الحاليتين، وفيه توفي أبو عبيده بن الجراح ومعاذ ابن جبل ويزيد بن أبي سفيان والي دمشق، وولاها عمر بن الخطاب بعده أخاه معاوية. وامتد لواء ولايته لها في عهد عثمان حتى شمل الشام، وعمل على الاستعانة ببدو الشام في شئون الإدارة مما جعلهم يلتفون حوله، وظهر ذلك سريعا حين تولى الخلافة علي بن أبي طالب، وعزله، فإنه سرعان ما طالب بدم عثمان وناصره بدو الشام.

وتطورت الظروف سريعا إلى أن نشبت حرب صفين بين معاوية وبين علي بن أبي طالب كما هو معروف، حتى إذا أيقن معاوية بالهزيمة أمر جنده- استجابة لمشورة عمرو بن العاص- أن يرفعوا المصاحف على أسنة رماحهم داعين إلى الاحتكام إلى كتاب الله، ورضي علي وأقيم حكمان للفصل بين الطرفين: أما جند على العراقيون، فاختاروا أبا موسى الأشعري، واختار معاوية وجند الشام عمرو بن العاص، ويروى الجاحظ أن معاوية قال له: "يا عمرو إن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبي موسى، وأنا وأهل الشام راضون بك،وقد ضم إليك رجل طويل اللسان قصير الرأي فأجد الحز وطبق المفصل، ولا تلقه برأيك كله". وصدق حدس معاوية فقد استطاع عمرو أن يقنع أبا موسى بعزل على عن الخلافة لوقف الحرب وحقن دماء المسلمين. وأعلن الحكم، وانقسم جيش علي: فرقة معه وفرقة سَمت أنفسها الخوارج، وهو أول ظهورهم في التاريخ الإسلامي وحاربهم كل بهم، ولم يلبث أن أغتاله خارجي أثيم. وبذلك خلا الجو لمعاوية وخاصة حين أعلن الحسن بن علي تنازله عن الخلافة له. وقد بايعه جنده وأمراؤه بالخلافة في بيت المقدس واتخذ دمشق حاضرة لخلافته.

(ب) زمن الدولة الأموية

أسس معاوية في الشام الدولة الأموية وتزعمها فرعان: فرع سفياني نسبة إلى أبي سفيان، معاوية على رأسه وابنه يزيد، وفرع مرواني من البيت الأموي نسبة إلى مروان بن الحكم ومن خلفه من أبنائه وأحفاده. وكان معاوية بعيد النظر سيوسا حازماً، وكان له بصر بالشخصيات من حوله، فاستعان بطائفة من صفوة الحكام في مقدمتهم عمرو بن العاص في مصر، والمغيرة بن الكوفة وقد استطاع زياد أن يقضي على معارضة علي في شرقيّ الدولة وأن ينشر في ربوعه الأمن ووجه معاوية حملات مختلفة إلى بيزنطة واستطاع حصارا لقسطنطينية مرتين ووجه حملة بحرية إلى قرص، وكانت دمشق قاعدة الخلافة في زمنه وكان يستعين بأهل الشام في شئون الحكم وعمها الرخاء. وشمل المسيحيين بتسامح واسع واتخذ لنفسه مستشارا ماليا منهم هو سرجيوس، إذ وكل إليه فيما يقال الشئون المالية. ويبد أنه كان حاكما لدمشق قبل فتحها. على كل حال استعان معاوية في الشئون المالية لدمشق، وظلت أسرته بعده في خدمه الأمويين فكان ابنه يشرف على الخراج لعهد عبد الملك، وبالمثل استعان الأمويون بحفيده، وفي عهده توغل عقبة بن نافع- ابن خالة عمرو بن العاص- في البلاد المغربية، وأسس في وسطها القيروان بتونس، وواصل فتوحه في عهد معاوية وابنه يزيد حتى أشرف على المحيط الأطلسي.

ولما خلف معاوية ابنه يزيد أبي البيعة له عبد الله بن الزبير ولاذ بالحرم المكي، كما أباها الحسين ابن علي واتجه إلى العراق، فلقيته طلائع جيش لعبيد الله بن زياد والي العراق قبيل دخوله الكوفة في "كربلاء" غربي الفرات ولما أبي الاستسلام ونازلوه واستشهد الحسين ومن كان معه من أهله وأنصاره مما كان له أكبر الأثر في التطور السريع للشيعة، ولا يخلو ضريحه طوال العام من حجاجهم إليه حتى اليوم. وكانت المدينة قد انضمت إلى ابن الزبير فأرسل يزيد إليها جيشا بقيادة مسلم بن عقبة فنكل. بها وفي طريقه إلى مكة لحرب ابن الزبير توفي وخلفه حصين بن نمير السكوني، فمضى حتى حاصر ابن الزبير بمكة وجاءه نعي يزيد بن معاوية، ففك عنها الحصار

وعاد بجنده إلى الشام. وخلف يزيد ابنه معاوية وتوفى بعد أربعين يومًا من خلافته. واضطربت العراق، واضطر واليها عبيد الله بن زياد إلى مبارحتها، وانتهز الفرصة مروان بن الحكم واعتلى عرش الخلافة يؤيده بدو الشام من اليمنية وأبي بدوها من القيسية مبايعته وهزمهم في موقعة مرج راهط، وتبعته مصر، أما العراق فظل الاضطراب سائدًا فيها، وبايع قسم منها ابن الزبير وقسم تحرك للطلب بدم الحسين وكان عبيد الله بن زياد فكر في العودة إلى العراق على رأس جيش فقضى عليه هذا القسم، وحاول المختار الثقفي والي الكوفة أن يجمعه تحت لوائه وقضى عليه مصعب بن الزبير والي أخيه عبد الله على البصرة.

وكان مروان بن الحكم قد توفي وخلفه ابنه عبد الملك وسر سروراً عظيماً لما حاق بالمختار الثقفي وجنوده على يد مصعب، وأخذ يتحين الفرص للقضاء عليه في العراق وعلى أخيه عبد الله بن الزبير في مكة والحجاز، أما مصعب فذهب إليه عبد الملك في سنة ٧١ للهجرة على رأس جيش ضخم، وقضى عليه، وبايعه العراقيون. وأما عبد الله بن الزبير فأرسل إليه الحجاج في جيش كثيف، وما زال به حتى تفرق عنه أصحابه، وظل يستبسل في تقال القوم حتى خرّ صريعًا. وقد عُنى ببناء المسجد الأقصى وتعريب إدارة الدولة واستطاع أخوه عبد العزيز واليه على مصر أن يقضى نهائياً على المعارضة في المغرب.

ويُعد زمن الوليد بن عبد الملك أزهى أيام المر وانيين لفتوحاته العظيمة شرقا وغرباً، أما في الشرق فاستطاع محمد بن القاسم فتح السند واستطاع قتيبة بن مسلم أن يمتد انتصاراته إلى الإقليم المسمى الآن باسم أوزبكستان وعاصمته حينذاك سمرقند. وأما في الغرب فقد استطاع موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد أن يقضيا على الدولة القوطية في إسبانيا، وأن يبلغا بفتوحهما هناك أقصى المشال. وهذه الفتوح كانت تعود على الدولة بأموال عظيمة محمد هيأ لرخاء واسع في ديار الشام، كما هيأ للوليد نفسه أن يهتم في دمشق بالعمران وأن يقيم بها الجامع الأموي العظيم ويقال إنه عمل به من البيزنطيين وحدهم ألف ومائتا عامل سوى من عمل به من الفرس وأهل الشام وقد زُينت جدرانه وسقوفه بالرخام المطعم والفُسيفساء التي كانت تمثل مدنا وأشجارا من كل نوع سوى ما كان فيه من أعمدة وتزاويق عجيبة.

وخلف الوليد أخوه سليمان واتخذ بلدة الرملة بفلسطين حاضرة له. وكان من سوء تدبيره أن نكل بقواد الوليد العظام، فقُتل قتيبة ولم يعرف مصير موسى بن نصير ولا محمد بن القاسم، وحسنته الوحيدة انه استخلف بعده ابن عمه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، وقد ألغى سبَّ علي بن أبي طالب على المنابر وعمل على استمالة الشيعة والخوارج والنصارى وخفّف من ضرائب الجزية المفروضة على الأخيرين في قبرس وأيلة (العقبة) ونجران ومصر، وسوى بين العرب والموالي في الضرائب وأعفى منها المشتركين منهم في حرب خراسان مع فرض أعطيات لهم، غير أن حكمه كان قصيا من سنة ٩٩ إلى ١٠١. ولم يأخذ خلفاؤه بإصلاحاته، وعجّل ذلك باضمحلال الدولة. وأولهم عده يزيد بن عبد الملك الذي لم يأخذ بسيرته وإصلاحاته وانغمس في الملاهي، وتلاه بعد نحو أربع سنوات أخوه هشام الذي اتخذ مقره في الرُصافة على الفرات، وفي عهده ثار زيد بن علي بن الحسين في الكوفة سنة ١٢١ وقُتل وصُلب، واستغل ذلك دعاة العباسيين مما مهد السبيل لقيام خلافتهم بعد نحو عشر سنوات. ومُنى عرب الأندلس بهزيمتهم جنوبي فرنسا سنة ١١٤ للهجرة أمام شارل مارتل.

وتوفي هشام سنة ١٢٤ وخلفه عهد تضعضعت فيه الدولة الأموية وآذنت شمسها بالمغيب، فقد خلفه ابن أخيه الوليد بن يزيد وكان شاعرا ماجنا فلقى مصرعه سريعان وجاء بعده يزيد بن الوليد وسرعان ما توفى بعد خلافته بنحو خمسة أشهر وتلاه أخوه إبراهيم ولم يرضه الناس ولا الأسرة الأموية، وتحولت مقاليد الخلافة إلى مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، وكأنه لم يعد في أسرة عبد الملك من يصلح لها. وكان محاربا عالي الهمة، وأطأ بنقله عاصمة الخلافة إلى حرّان، فانفض عنه بدو الشام، ونشبت فتن كثيرة أضعفت قواه، بعضها في الشام وبعضها في العراق حيث الخوارج والشيعة. ولم تكد هذه الفتن تهدأ حتى تحرك العباسيون برياتهم السود من خراسان، وأخذت المدن الإيرانية تسقط في أيديهم ودخلوا العراق واستولوا على الكوفة ومضوا إلى شمالي العراق وهزموا مروان عند الزاب الأكبر، فأخلى الجزيرة واتجه إلى الشام وتخلى عنه أهلها، فالتجأ إلى مصر، ولقى مصرعه بها في بوصير. وكان السفاح قد أعلن الخلافة العباسية في الكوفة وطرد الأمويون في كل مكان وأبيدوا بوحشية، ونُبشت قبور خلفائهم– عدا معاوية وعمر بن عبد العزيز– وأذريت عظامهم ورفاتهم في الهواء، ونجا

من هذا البطش والنكال عبد الرحمن الداخل أحد حفدة هشام بن عبد الملك، إذ فر إلى الأندلس وأسس بها دولة أموية جديدة ظلت نحو ثلاثة قرون.

(جـ) زمن الولاة العباسيين

فقدت الشام- بسقوط الدولة الأموية- السيادة المطلقة في الإسلام وفقدها العرب معهم تدريجياً. إذ أخذ الأعاجم يشغلون المناصب العليا في الدولة العباسية، وكان العباسيون يعرفون أن دولتهم إنما قامت على أسنة رماحهم، فقربوهم منهم وفسحوا لهم في الوزارة وغير الوزارة. وكان لذلك صداه السيئ في نفوس أهل الشام، مما هيأ بعده نحو عشرين عاما لثورة القيسية في قنسرين بزعامة أموي هو أبو محمد السفياني، وسرعان ما قضى عليها العباسيون وفر السفياني إلى الحجاز ولقى حتفه هناك، ولم يصدق أتباعه وفاته فظلوا يترقبون عودته ليجدد للشام مجده الغابر.

ونمضي إلى سنة ١٩٥ في عهد الخليفة الأمين فيظهر في دمشق سفياني جديد هو علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ويطرد عامل الأمين عن دمشق، ويبايعه الدمشقيون بالخلافة. وشُغل عنه الأمين بحرب أخيه المأمون مدة. ولم يلبث أن قضى على ثورته أعوان الأمين واختفى بالمِزّة بالقرب من دمشق وأقام بها أياما ومات. وفي سنة ٢٢٧ لعهد المعتصم ثار بفلسطين المُبرقع أبو حرب اليماني وزعم أنه السفياني المنتظر ودعا أولا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن قويت شوكته فادّعى النبوة، وتبعه قوم من فلاحي القرى وقوى أمره وسار إليه أحد قواد المعتصم في ألف فارس وأسره وحبسه ومات في حبسه.

وكان أول من تولى الشام للسفاح عمه عبد الله بن علي بعد قضائه على مروان بن محمد في موقعة الزاب حتى إذا فرّ مروان إلى الشام مضى يتبعه إلى دمشق ففتحها وهدم سورها وقتل من الأمويين ثمانين رجلاً في مذبحة مشهورة ببلدة الرّملة. وولاه السفاح دمشق، ولما ولى الخلافة بعده أبو جعفر المنصور، خرج عليه عبد الله ودعا لنفسه فهزمه أبو مسلم الخرساني، وحبسه المنصور ومات في حبسه. وتولى أمر الشام ودمشق بعد عبد الله كثير من الولاة وكان بعضهم من الأعاجم مؤيدي الدولة. واتبع العباسيون سياسية غير حكيمة أن لا يبقوا والياً لهم في بلد إلا مدة قصيرة. وكان

هذا سبباً في أن لا يُعنى الولاة بالنهوض ببلدانهم من جهة،كما كان سببا في أن يحاولوا الإثراء سريعًا قبل أن يُعزلوا من مناصبهم، مما كان يدفعهم في كثير من الأحيان إلى الزيادة في الضرائب، كما كان يدفع الناس إلى الثورة عليهم، وسرعان ما كان يقضى على ثوراتهم كما حدث في حلب سنة ١٦٢ وفي حمص سنة ١٩٤.

ويبدو أن القبائل القيسية واليمنية لم تتعظ بما أصابها من فقدان موطنه لاستقلاله الذاتي، فقد اندلعت بينها نار العصبية القديمة وأخذوا يمدونها بحطب جزل طوال العقد الثامن من القرن الثاني، واغتنمت السوقة بدمشق الفرصة فنهبت ما استطاعت أيديها نهبه، وتطاحن الفريقان وسُفكت دماء المئات منهما. وأخيراً أرسل إليهما هارون الرشيد وزيره جعفراً البرمكي، فأطفأ نار العصبية المحتدمة بين الطرفين بتجريدهما من السلاح وعاد إلى دمشق الهدوء والسلام. وفي سنة ٢٢٧ يولي المعتصم موسى بن إبراهيم الرافقي دمشق فتثور عليه القيسية ويقتل منها خمسة عشر نفسا، فتشتد ثورتها وتحاصر دمشق، ويتوفى المعتصم فيرسل الواثق خلفاً له أحد قواده فيهزم القيسية، ويقتل منها ألفا وخمسمائة، وتهدأ الثورة، ويعود الأمن إلى دمشق.

وكان الخلفاء العباسيون يرحلون إلى الشام أحياناً، لزيارة بيت المقدس أو للحج منه، وأكثر رحلاتهم إنما كانت لحرب البيزنطيين، والسقوط عليهم من ثغوره. ومما يذكر لهم أنهم أقاموا في حدوده الشمالية كثيرا من الثغور للاندفاع منها إلى آسيا الصغرى. وكانت جيوشهم ماتني ذاهبة إلى شمال الشام آيبة منه، مما عاد عليه بكثير من الرخاء وانتعاش التجارة. واشتهر المهدى والرشيد بنضالهما لبيزنطة وما كان من فتح هرقلة وضرب البيزنطيين ضربات قاصمة. وأخذ المأمون منذ سنة ٢١٥ يقود حملات عنيفة لمدة ثلاث سنوات متوالية استولى في أثنائها على لؤلؤة أقوى وأمنع الحصون البيزنطية بالقرب من طرسوس، مما اضطر تيوفيل إمبراطور بيزنطة إلى التماس الصلح. وفي سنة ٢٢٣ دق المعتصم وقواده أعناق البيزنطيين دقاً وأوطئوهم ذُلا وصغارا إذ هدموا أنقرة وحرقوا عمورية أمنع بلادهم في آسيا الصغرى. وظل قواده من أمثال محمد بن يوسف الثغري وابنه يوسف يكيلون لهم ضربات ساحقة. ويظل غزو البيزنطيين صيفا في أيام الخليفة المتوكل، ويغيرون على بعض الثغور في شمالي الشام. وينكل بهم على بن يحيي الأرمني والفارس المغوار عمر ابن عبد الله الأقطع، ويتم فتح صقلية،

ويدمر أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار أسطول البيزنطيين. وزار المتوكل الشام في آخر سنة ٢٤٣ ودخل دمشق وأعجبته، وبنى له قصراً بالغوطة وعزم على المقام بها ونقل دواوين الخلافة إليها. ويفطن قواده من الترك إلى مأربه، ،أنه يريد التخلص منهم، فطالبوا برواتبهم حتى يضطروه إلى العودة إلى سامراء عاصمته في العراق. ونزل على إرادتهم، وبارح دمشق سريعا. وربما كان من أنه ما خلفه عصر الولاة العباسيين بالشام كثرة العناصر الفارسية التي دخلته بين ولاة وقضاة وعلماء وفقهاء مختلفين.

(د) الطولونيون- القرامطة

١- الطولونيون[١]

كان أحمد بن طولون تركي الأصل خدم العباسيين وولي مصر فأنشأ بها الدولة الطولونية محققا لها نوعا من الاستقلال الذاتي، وكان قد ولي إمرة الثغور وجاهد في سبيل الله. ويقول مؤرخوه إنه نشأ يعني بالفقه مع كثرة الدرس وطلب العلم، وكان يقول: ينبغي للرئيس أن يجعل اقتصاده على نفسه وسماحته على من يقصده ويشتمل عليه، فإنه يملكهم ملكا لا يزول به عن قلوبهم، وقد غم الرخاء مصر منذ وليها في سنة ٢٥٤ ويقال إنه كان يتصدق في كل يوم بمائة دينار غير ما كان يرسله إلى الشام والعراق والحجاز. ومنذ توليه مصر وضع نصب عينيه الاستيلاء على الشام، ولم يكن ذلك غائبا عن فكر الموفق القائم على تدبير دولة أخيه المعتمد، غير أنه كان مشغولا بثورة الزنج والقضاء عليها، وانتهز ابن طولون الفرصة بعد موت والي دمشق سنة ٢٦٤ وأناب عنه بها مولاه لؤلؤاً ولم يلبث في سنة ٢٦٨ أن أظهر الخلاف عليه وضرب نقودا باسمه وكاتب الموفق ليرسل إليه جيشاً يفتح به مصر. وخشي ابن طولون أن يهم الموفق بتلبيته، فأرسل إلى الخليفة المعتمد وكان كالمحجور عليه يرغبه في الرحيل إليه بمصر، وتوجه إلى سوريا كي يكون في استقباله وعزم المعتمد على اللحاق به وتنبه الموفق، فحال بينه وبين الرحيل عن العراق. ومضى ابن طولون يغاضب الموفق اسمه

(١) راجع في هذه الدولة كتب التاريخ السالفة في أول الإسلامية وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٠.الفصل وسيرة أحمد بن طولون للبلوي ودائرة المعارف.

obeikandl.com

من الخطبة يوم الجمعة بمصر والشام إذ كان يّذكر فيها ولياً للعهد، ولم يرد على ذلك الموفق إذ كان يميل معه إلى السلام، ولذلك لم يرسل إلى لؤلؤ جيشاً لغزو مصر. وعادت الشام إلى ابن طولون سريعاً.

وكان عهد ابن طولون في الشام عهد رخاء وأمن، ويقال إنه أول دخول له في دمشق وقع بها حريق، فأمر بأن يعطي لكل من احترق له شئ من المال ما يعوّضه،ثم أمر بمال عظيم ففرق في فقراء دمشق والغوطة. وتوفي سنة ٢٧٠ فخلفه ابنه خُمارويه، وثار عليه واليه على دمشق وولاة آخرون هناك. وأيدهم الموفق بجيش، فمنى خمارويه بالهزيمة، وتتابعت هزيمته في سنتي ٢٧١ و ٢٧٢. وأخذ نجمه في الصعود لسنة ٢٧٣ إذ كتب إلى الموفق في الصلح فأجابه، وكتب له بولايته على مصر والشام والثغور لمدة ثلاثين سنة. وسُّر خمارويه سرورا عظيماً، وأمر بإعادة الدعاء للموفق في خطبة الجمعة، وكان يتردد على الشام بجيشه الضخم كثيرًا، مما كان يعود على أهلها برواج واسع في التجارة. وبدمشق قتله خادم له في قصره سنة ٢٨٢ ويقال إن هذا الخادم كان أولع بجارية له فتهددها خمارويه بالقتل فاتفقت مع الخادم على قتله. وسرعان ما أخذت شمس الدولة الطولونية في الغروب، وولى بعده ابنه " أبو العساكر جيش" وعكف على الشرب واللهو فنفر القواد– ونفرت الناس– منه. وخلعه أخوه هارون بعد ولايته بتسعة اشهر، وكان لا يزال صبيا ضعيفا، فأخذت الدولة في التضعضع، وعاث القرامطة فساداً في الشام، ولم يستطع قواده وجنوده أن يردوهم عن دمشق وغيرها فاستغاث أهل الشام بجيوش الخليفة المكتفي وأغاثتهم. ووضح أنه لم يعد يوجد أي مسوغ للإبقاء على الأمير الطولوني المستضعف، وخلفه عمه شيبان وكان لا يقل عنه ضعفا، ومنه تسلم مصر محمد بن سليمان سنة ٢٩٢.

obeikandl.com

٢- القرامطة[١]

كان أول ظهور القرامطة في العراق سنة ٢٧٧، وهي حركة سياسية دينية خطيرة تحدثنا عنها بالتفصيل في كتابنا العصر العباسي الثاني، وأوضحنا كيف أنها بدأت بإيحاء من عبد الله بن مسعود القدّاح منظم الدعوة الإسلامية الشيعية من مركزه في " سَلَمْية" بالقرب من اللاذقية. وكيف أنه أرسل دعاته إلى العراق وخاصة الكوفة وسوادها وعلى رأسهم الحسين الأهوازي، وقد التقى في لسواد بنبطي يلقب بقرمط ووجد فيه أمنيته من التحمس الشديد للدعوة. ولما دنا أجله عهد إليه بها فنظمها. وتبعه كثيرون مكونين فرقة القرامطة نسبة إليه، وسرعان ما تحولت الفرقة إلى فرقة مارقة تُحل أتباعها من الفرائض الدينية وتفرض عليهم نظاما اشتراكياً في الأموال. وانضم إلى قرمط قليل من الطبقة الكادحة لا في السواد والريف فقط بل أيضا في المدن، ومن أهم أتباعه الحسين بن بهرام الجنابي الفارسي الذي نشر الدعوة في البحرين والأحساء. ويخلفه في سنة ٢٨٩ زكرويه القرمطي وكان أكثر نشاطا من قرمط، فرأى أن يعني بنشر الدعوة بين البدو في جنوبي العراق ولم يتبعه إلا القليل، حينئذ أرسل أولاده يحي والحسين ومحمدا إلى عشائر قبيلة لب في بادية الشام وزعموا لها أنهم من سلالة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وتبعهم كثيرون وخاصة بني العُليص. وكانوا قد جعلوا زعامتهم لأخيهم يحي فبايعه البدو وكانت له عضد ناقصة فكشفها لهم وقال إن هذه آيته. وآية له ثانية هي ناقته، وزعم أنهم إذا تبعوها في لقاء عدو كُتب لهم النصر المبين. وساق جموعه في الشام يعيشون ويفسدون، وحاصر بهم دمشق فقُتل على أبوابها، فبايع أتباعه أخاه الحسين ونادوا به خليفة له، وأظهر لهم شامة في وجهه الملثم وقال إنها آيته، ولذلك لُقب صاحب الشمامة. وخافه أهل دمشق فصاحوا على خراج يؤدونه إليه، وتغلب على حمص وخُطب على منابرها بأنه المهدي المنتظر، وهاجمت جموعه بعلبك وحماة والمعرة تقتل وتنهب. وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية كما مر بنا، وكانت تعاني ضعفا شديدا، فلم تستطع أن تنقذ الشام من القرامطة وما أحدثوه

---

(١) انظر في القرامطة كتب التاريخ وخاصة الطبري، وكتب الملل والنحل وخاصة الفرق بين الفرق للبغدادي، ودارسات في العصور العباسية المتأخرة لعبد العزيز الدوري ص ١٢٦، وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٩ وكتابنا العصر العباسي الثاني ص ٣٣ وما بعدها.

بها من الفوضى والدمار، مما جعل أهل الشام يستغيثون منه بالخليفة المكتفي، ولبي استغاثتهم فأرسل إليهم محمد بن سلمان على راس جيش كثيف، فواقع القرامطة بالقرب من حماة في المحرم سنة ٢٩١ وأنزل بهم هزيمة ساحقة، وفر كثيرون منهم إلى البوادي. أما الحسين بن زكرويه فاتجه إلى الفرات، وأُسر هناك وصُلب ببغداد مع عشرات من القرامطة. وكان أخوه محمد لا يزال حيا بين بدو الشام، فأخذ في جمعهم حوله، حتى إذا كانت سنة ٢٩٣ أغار بهم على دمشق وحارب أهلها ودخلها وأعمل فيها القتل والنهب، ثم صار إلى طبرية فانتصر على أهلها ودخلها وفتك بكثير من رجالها ونسائها وعاد إلى البادية. وفي نفس السنة أرسل زكرويه داعية له يسمى أبا غانم إلى بادية الشام، وتبعه كثيرون ونهب بهم بُصرى وأذرعات، وتعقبته جنود الخلافة ولم يلبث أحد أتباعه أن قتله. وبذلك تنتهي حركة زكرويه وأولاده ودعاته في الشام، وكانت قد أصبحت منذ انتصار محمد بن سلمان على صاحب الشامة تابعة لبغداد، ترسل إليها ولاة مختلفين.

(هـ) الإخشيديون- الحمدانيون (سيف الدولة)

١- الإخشيديون[١]

الإخشيد هو محمد بن طُغج ولي مصر فأسس بها الدولة الإخشيدية سنة ٣٢٣ وما تُقبل سنة ٣٢٨ للهجرة حتى تحدث محمد بن رائق صاحب دمشق نفسه بالاستيلاء على مصر، ويلتقي به الإخشيد في الفرما، ويتم بينهما الصلح. وسرعان ما ينقضه ابن رائق ويتهيأ الإخشيد لقتالهن ويلتقيان ثانية في العريش وتحدث بينهما وقعة عظيمة. ويصطلحان على أن تكون للإخشيد الرملة وجنوبيها في فلسطين، أما شماليها من بلاد الشام جميعا فتكون لابن رائق. وحدث في سنة ٣٣٠ أن قتل الحمدانيون محمد بن رائق وانتهز الفرصة الإخشيد وجهز الجيوش إلى الشام واستولى عليها، ودخل دمشق وأصلح أمورها وأقام بها مدة، ثم عاد منها إلى الفسطاط في السنة التالية. ووقعت بينه وبين سيف الدولة الحمداني أمير حلب وحشة امتدت من سنة ثلاث وثلاثين أول سنة أربع

(١) انظر في الإخشيديين كتب التاريخ المذكورة في أول الفصل وخاصة النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي، وانظر ترجمة الإخشيد وكافور في ابن خلكان وخطط المقريزي ٦١٧/١ ومصر في عصر الإخشيديين للدكتورة سيدة كاشف.

obeikandl.com

وثلاثين وثلاثمائة، واصطلحا على أن تكون لسيف الدولة حلب وحمص وأنطاكية وتظل بقية بلاد الشام للإخشيد. وسرعان ما توفي بدمشق سنة ٣٣٤ مستخلفا بعده على مصر والشام ابنه أنوجور وعاهدا إلى مولاه كافور الإخشيدي بتدبير أمور مملكته. وفي أوائل إمارة أنوجور لسنة ٣٣٥ استولى سيف الدولة الحمداني على دمشق، فحشد له أنوجور عسكراً ضخمًا ولقيه في مدينة الرملة، ونشبت بينهما وقعة طاحنة انكسر فيها جند سيف الدولة وسار المصريون ورائهم إلى حلب. واستقر الأمر على الصلح وان يظل لسيف الدولة ما بيده من حلب وحمص وأنطاكية.أما دمشق وبقية الشام فتظل لأنوجور. وينزل المتنبي مصر في أيامه سنة ٣٤٦ ويتوفى أنوجور سنة ٣٤٩ قبل مبارحة المتنبي لها ويخلفه أخوه على ويظل كافور قائمًا بتدبيري الدولة وتصريف شئونها. وفي سنة ٣٥٢ قدم قرامطة البحرين إلى الشام وعاثوا فيها فسادا ولم يستطع جند مصر دفعهم عنها لاضطراب أعمال الديار المصرية بسبب عظم الغلاء وكثرة الفتن، وفسد في أثناء ذلك ما بين على ابن الإخشيد وكافور ولم يلبث على أن توفي سنة ٣٣٥ وتولى أمر الدولة في مصر والشام بعده كافور الحبشي باتفاق من أعيان مصر وجندها. وكان الإخشيد اشتراه من بعض رؤساء مصر وأعقته ورقاه، حتى جعله من كبار قواده لما رأى فيه من الحزم وحسن التدبير، وكان شجاعا مقداما.وظلت ولايته على مصر والشام إلى وفاته في جمادي الأول سنة ٣٥٧ وتولي بعده على بن أحمد بن الإخشيد، وكان صبيا، واضطربت أحوال الشام في عهده اضطراباً شديداً بسبب غارات القرامطة المتكررة وما كان يصحبها من الفوضى والنهب والسلب. وسرعان ما سقطت مصر في يد الفاطميين لسنة ٣٥٨ وبذلك انقرضت دولة الإخشيديين.

٢- الحمدانيون[١] (سيف الدولة)

منذ أواخر القرن الثالث الهجري أخذ يتألق اسم أسرة تغلبيه عربية هي الأسرة الحمدانية، وقد استطاع مؤسسها حمدان في سنة ٢٧٧ أن يستولي على قلعة ماردين في الموصل، وأخذت أسماء أبنائه وأحفاده تلمع في أحداث الخلافة المضطربة، ولمع من بنيه مبكراً اسم أبي الهيجاء لاستيلائه على مدينة الموصل سنة ٢٩٣ وظلت في يده ويد ابنه ناصر الدولة وحفيده أبي تغلب المتوفى سنة ٣٦٩. وقد استطاع ابنه على الملقب بسيف الدولة أن يستولي من الدولة الإخشيدية على حلب وحمص واللاذقية وأنطاكية وأسس فيها جميعا إمارة مستقلة منذ سنة ٣٣٣ للهجرة متخذًا حلب عاصمة له. وحاول الاستيلاء على دمشق من الإخشيد- كما مر بنا- غير أن المصريين ردوه على أعقابه فاكتفى إماراته. وندب نفسه لمهمة عظمى طالما هيأ نفسه لها منذ شبابه، وهي النهوض بعبء الحرب ضد الروم البيزنطيين. وكان أول لقاء معهم في سنة ٣٣٦ إذ أغاروا على أطراف الشام ونهبوا وسبوا فلحق بهم وأذاقهم نكالا شديداً، ورد منهم كل ما سلبوه من أهل الشام.ويُكتب له منذ السنة التالية مجد حربي عظيم ضد الروم، ويسجله له لوحات شعرية ناطقة المتنبي الذي نزل بطلاه حينئذ، ولزمه حتى سنة ٣٤٦ يسجل ويصور ملاحمه الحربية الساحقة للروم سحقاً ذريعًا.

ومضى البطل الحمداني يدير مع الروم معارك باسلة كان ينصب عليهم فيها سنويا كإعصار محرق مدمر، وشاعره المتنبي من ورائه يتغنى بانتصاراته وبخوارقه البطولية حين تلم به كارثة، إذ يتخلص منها في شجاعة نادرة. ومن أعظم بطولاته أنه كان يبني الحصون في أثناء نزاله للروم على نحو ما صنع بحصن مَرعش في سنة ٣٤١ وهو يكيل لهم ضربات قاصمة. وقد أنزل بهم صواعق الموت التي لا تبقى ولا تذر في سنة ٣٤٢ وأسر قسطنطين بن الدمستق وساقه بين يديه في دخوله حلب مظفراً منصوراً. وفي سنة ٣٤٣ جمع الروم له حشودا هائلة من الترك والروس والبلغار

---

(١) انظر في الأسرة الحمدانية وسيف الجولة كتب التاريخ السالفة والجزء الأول من زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم (طبع المعهد الفرنسي بدمشق- تحقيق الدكتور محمد سامي الدهان) وراجع اليتيمة للثعالبي ١٥/١ وما بعدها ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع في الحمدانيين وسيف الدولة)

والخزر بقيادة الدمستق، وسرعان ما أخذ يدق أعناقهم دقا، وهرب الدمستق على وجهه لا يلوي، واسر صهره بينما كان البطارقة يقتلون ويؤسرون،وأخذ سيف الدولة عسكرهم بكل ما فيه. وسيف الدولة في أثناء هذه المعركة ووطيسها المستعر يبني حصن الحدث شمالي مرعش والمسلمون يكبرون ويهللون. وفي سنة ٣٤٥ أنزل بهم ضربات مدمرة. وكان ما ينبي يمد يد المساعدة لأخيه ناصر الدولة في نزاله للروم شمالي الموصل وكثيراً ما نازلهم هناك وفي شمالي الجزيرة. وما تقبل سنة ٣٤٦ حتى يكفهّر الجو بين المتنبي وبين البطل العربي. ويرحل عنه وكأنما رحل معه مجده الحربي فقد واقع الروم في السنوات ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥١ ولم يُنزل بهم ما تعوّد من التنكيل الشديد.

ولم يلبث البطل العظيم أن أصابه في سنة ٣٥٢ فالج في يده ورجله ورغم هذا الفالج النصفي نهض البطل من فراشه وصدّ بقوة هجوما للروم على حصن من حصون حلب. وفي سنة ٣٥٦ لّبي البطل نداء ربه، وكان قد أوصى بأن يوضع خده في لحده على لبنةٍ بقدر الكف جمعها مما علق بثيابه ودروعه وسلاحه من غبار غزواته للروم. ونُفذت وصيته. وكان يرعى العلوم والآداب أعظم رعاية. ولمع في بلاطه أكبر تلامذة أرسطو حتى زمنه: الفارابي المعلم الثاني. ولمع كثير من الشعراء والكتاب يتقدمهم المتنبي، عقد لهم الثعالبي في كتابه " يتيمة الدهر" فصولا طويلة في الجزء الأول منه، وفيه فوفي أسرته يقول: " كان بنو حمدان ملوكا وأمراء أوجههم للصباحة، وألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وعقولهم للرّجاحة، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وواسط قلادتهم، وحضرته مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال، ومحط الرجال، وموسم الأدباء، وحلبة الشعراء ". وخلفه ابنه سعد الدولة، وكان ابن عمه أبو فراس الشاعر المشهور عامل أبيه على حمص قد ظلم وأكثر من الظلم وكثرت الشكوى منه، فقاتله وخّر أبو فراس في ميدان الحرب صريعا. وفي نفس السنة علم باستعداد الروم لحربه، فأسل إليهم فرغويه الحاجب وأسر وأفلت منهم وانهزم أصحابه وخرب نقفور كثيراً من بلدان الشام وأعمل النهب والسلب. وعصى قرغوية سعد الدولة واستولى على حلب في أول سنة ٣٥٨ ولم يلبث نقفور أن استولى على أنطاكية، وظلت في أيدي الروم إلى أن فتحها السلاجقة سنة ٤٧٧ وأمضى معه قرغوية صلحا ذليلاً، واصطلح مع سعد الدولة الذي ظل أميراً لحلب حتى توفي سنة ٣٨١ فخلفه ابنه سعيد الدول، وقع عقد مثل أبيه

حلفا بينه وبين الروم ضد الفاطميين الخطر المشترك للطرفين، وتوفي سنة ٣٩٢. وخلفه ولدان له، ولعب بهما لؤلؤ مولي جدهما واستولى على الأمور إلى أن توفي وقام مكانه ابنه منصور. وحاول ابن لسعد الدولة يسمى أبا الهيجاء أن يسترد إمارة آبائه ولم يلبث أن فر إلى بلاد الروم في مطالع القرن الخامس الهجري، وبذلك انتهت إمارة الحمدانيين بحلب وشمال الشام، ولم تكن إمارة لهم حقاً إلا في عهد سيف الدولة المجيد.

obeikandl.com

٢

الفاطميون- بنو مرداس- السلاجقة- الصليبيون- آل زنكي (نور الدين)

(أ) الفاطميون[١]

دولة شيعية إسماعيلية تأسست في تونس وتحوّلت إلى مصر بعد فتح قائدها جوهر لها سنة ٣٥٨، ولم يلبث أن أرسل إلى الشام جعفر بن فلاح على رأس جيش للاستيلاء عليه، ولم يلق مقومة تذكر، ودخل دمشق وخطب بها للمعز الخليفة الفاطمي في المحرم سنة ٣٥٩، وفي السنة التالية أعلن المؤذنون في الشام- بأمره- " حيّ على خير العمل" شارة الأذان الشيعي. وأخذ القرامطة يغيرون على دمشق ومدن الشام وكان يردهم جعفر بن فلاح، ولم يلبث كبيرهم في البحرين الحسين بن أحمد- كما مر بنا في الحديث عن الجزيرة العربية بمصر الدول والإمارات- أن قطع علاقته بالفاطميين في مصر وأعلن خضوعه للخلافة العباسية، وسأل الخليفة المطيع بالله العباسي على لسان عز الدولة البويهي أن يوليه مصر والشام ويعطيه مالا وسلاحا لحرب المعز لدين الله، وأمده عز الدولة بالسلاح والمال في سنة ٣٦٠ وقبل بل في سنة ٣٦٢ فسار إلى الشام وملكها ولعن المعز الفاطمي وأباه على منبر دمشق، وأقام الدعوة للعباسيين، وسار إلى القاهرة بعساكره وحصلت- بالقرب منها- بينه وبين المعز مناوشات، وتقهقر المعز، وأغرى قواده بالمال فخرجوا عليه وانضموا إلى المعز، فعاد إلى الرملة بالشام ومنها إلى البحرين. وكان ذلك أول اضطراب شديد حدث في الشام لعهد الفاطميين وانتشرت في أثنائه وبعده الفوضى في دمشق واشتعلت النار في كثير من أحيائها.

وظل الفاطميون مسيطرين على الشام نحو قرن، قلما وجدت فيه أمنا وسلاما بسبب كثرة الولاة الذي كنوا يولونها عليها، فكان هم الوالي أن يُثرى بسرعة على حساب

---

(١) انظر في الفاطميين بالشام كتب التاريخ العامة، ابن الأثير وابن خلدون وابن تغري بردي وابن خلكان في تراجم الخلفاء وجوهر الصقلي والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) وتاريخ مصر لابن ميسر والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي وذيل تاريخ دمشق لابن القلاني (طبع ليدن) في السنوات ٣٦٣- ٥٥٥ واتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا للمقريزي وكتابة الخطط ٢١/٢ والفاطميون ف مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن.

obeikandl.com

أهلها وما يفرض عليهم من الضرائب. وقد وليها لهم نحو خمسين والياً، وكثيراً ما كان يتولاها اثنان أو أكثر في العام الواحد. وبسبب ظلم الولاة وكثرة الضرائب كانت تنشأ أحياناً ثورات محدودة لبعض العيَارين بها كثورة قسّام الحارثي سنة ٣٧٧ لعهد العزيز الفاطمي. وخلف العزيز ابنه الحاكم بهوسه وشذوذه النفسي ودعواه الألوهية مما صورناه في قسم مصر، وكان من أهم من أغراه بدعوى الألوهية رجل يعرف بالدرزي أمره الحاكم أن يخرج إلى الشام وينشر تلك الدعوة في الجبال، فنزل هناك وتبعه كثيرون من جبل حوران في سوريا المعروف باسم جبل الدروز، وانتشرت الدعوة بين سكان الإقليم الجبلي بلبن، ولا تزال في المنطقتين إلى اليوم، وسقطت منها أسرات إلى جبال فلسطين وإلى الجبال في أعالي الشام على نهر العاصي وقرب أنطاكية. ومن المؤكد أن العقيدة الفاطمية الإسماعيلية هي التي دفعت الحاكم ودعاته إلى ربوبيته إذ كانت تردّد- كما مر بنا في قسم مصر- أن الخلفاء تجسد للذات العلية. وكان طبيعيا في عهد الخليفة الشاذ المخبول أن تضطرب شئون الحكم في الشام. وكان أبوه وجده يستعينون ببدو الجزيرة العربية الشماليين من طيئ ورؤسائهم بني الجراح، ونرى حينئذ حسان بن المفرج بن دغفل لا يكتفي بإقطاع الفاطميين لأبيه مدينة الرملة، بل يستولي على أكثر الشام، ويحاول أن يخلع الحاكم، ويولى مكانه أبا الفتوح أمير مكة الحسنى، ويقدم عليه أبو الفتوح، غير أن الحاكم يغري ابن المفرج بالأموال فينفض يده من أبي الفتوح ويعود إلى إمارته.

(ب) بنو[١] مرداس

كانت حلب قد دخلت في حكم الفاطميين منذ سنة ٤٠٦ ولا نمضي طويلا في سنة ٤١٥ حتى يستقل بها صالح بن مرداس الكلابي ويضع في سنة ٤٢٠ يده في يد حسان بن المفرج الطائي ويجمعان الجموع ويستوليان على الأعمال في الشام وينتهيان إلى غزة، ويلتقي بهما جيش فاطمي.فينهزم حسان ويقتل في المعركة صالح وابنه الأصغر، ويخلفه ابنه شبل الدولة نصر. وطمع صاحب أنطاكية في حلب، وجمع لها الجموع وأحاط بها وقاتل أهلها، ولم يلبث نصر أن خرج إليه وفتك بمعظم جنوده وفر على وجهه وغنم منه نصر عسكره وأموالاً عظيمة. وتوفي نصر سنة ٤٢٩ وخلفه أخوه

(١) انظر في بني مرداس كتب التاريخ العام وزبد الحلب. من تاريخ حلب:الجزئين: الأول والثاني.

openkanal.com

ثمال وخضع للفاطميين وتوفي سنة ٤٥٤. ونشب خلاف بعده على حكم البلدة بين أخيه عطية وبين محمود بن نصر واصطلحا. وتخلص حلب لمحمود منذ سنة ٤٥٧، ويواقع الروم ويهزمهم ويراسل ألب أرسلان السجلوقي ويستقر بينما الأمر على إعادة الدعوة العباسية والخضوع للسلاجقة. وفي أيامه قاد ألب أرسلان حملة مظفرة ضد الروم الشرقية وأسر إمبراطورها " روما نوس ديوجين" سنة ٤٦٢ وفدى الإمبراطور نفسه بمليون دينار، على نحو ما مرّ بنا في حديثنا عن السياسة بالعراق في الجزء السابق من عصر الدول والإمارات. وظل محمود اميراً لحلب حتى سنة ٤٦٧ وأعاد بها ذكرى الحركة الأدبية التي أحدثها بها سيف الدولة، فالتف حوله كثير من الأدباء والشعراء، وخلفه ابنه نصر وكان محبوبا من الحلبيين غير أن الموت اختطفه سريعًا بعد نحو عام من ولايته، وجاء في إثره أخوه سابق حتى نهاية سنة ٤٧٢ إذ سلم البلدة لمسلم بن قريش العقيلي صاحب الجزيرة فبقيت معه نحو خمسة أعوام وتسلمها منه السلاجقة.

(جـ) السلاجقة[١]

مر بنا في حديثنا عن العراق بالجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي حديث مفصل عن السلاجقة واستيلائهم على دفة الحكم في خراسان وإيران والعراق، وقد أزل ألب أرسلان بإمبراطور بيزنطة هزيمة ساحقة كانت إرهاصا قويا لزوال الحكم البيزنطي من آسيا الصغرى كما حدث فعلا. وكان طبيعيا أن يفكر ألب أرسلان وابنه ملكشاه في الاستيلاء على الشام، وسرعان ما ظهر في سنة ٤٦٣ أتسز بن أوق الخوارزمي في فلسطين واستولى على الرملة وبيت المقدس، وفي سنة ٤٦٨ استولى على دمشق، وبذلك اصبح أكثر الشام تابعا للسلاجقة. حتى إذا كانت سنة ٤٧٢ تسلم تتش بن ألب أرسلان من أتسز دمشق وأصبح نائبا فيها لأخيه ملكشاه، وافتتح في سنة ٤٧٤ أنطرطوس على ساحل البحر المتوسط، وهي أول أعمال حمص، ولم يلبث أن استولى على حمص نفسها. وظل ساحل الشام جنوبي صور تابعا لمصر. واستقل جلال الملك بن عمار قاضي طرابلس بها سنة ٤٧٠ وكان قد أقّره عليها ملكشاه السلجوقي وظلت معه حتى أخذها الصليبيون سنة ٥٠٢. وفي هذه الأثناء استولى على بن منقذ من

(١) راجع في سلاجقة الشام كتب التاريخ العام وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي وانظر في أتسز تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٣١/٢ وفي تتش ابن عساكر ٣٤٠/٣ وفيه وفيمن وليها بعده حتى استيلاء نور الدين عليها ابن خلكان ٢٩٥/١.

الروم على حصن شيزر شمالي الشام سنة ٤٧٤ وظلت في يده ويد أبنائه إلى أن هدمتها زلزلة شديدة سنة ٥٥٢. وكان سليمان قد قُتلمش استولى على أنطاكية سنة ٤٧٧ فحاربه تتش وخر صريعا في الحرب سنة ٤٧٩. وبذلك صارت إلى تتش واستولى على حلب سنة ٤٨٧، وقتل بالري في حرب مع ابن أخيه بركياروق سنة ٤٨. وخلفه على حلب ابنه رضوان، ومن نوابه أخذ الصليبيون أنطاكية سنة ٤٩٢ وخلفه على دمشق ابنه دُقاق.

وتوفي دقاق سنة ٤٩٧ فخلفه عليها أتباكه " طغتكين" وأسس بها دولة البوريين وله في جهاد الصليبين يد بيضاء وكان شجاعا عادلا في الرعية توفي سنة ٥٢٢ فخلفه ابنه بوري حتى وفاته سنة ٥٢٦ وكان قد قتل جماعة كثيرة من الإسماعيلية فسلطوا عليه رجلين ضرباه بالسكاكين وظلت جراحه تنتقض وتندمل إلى وفاته. وخلفه ابنه إسماعيل، وكان ظالما سيئ السيرة محبا لسفك الدماء توفي سنة ٥٢٩ وكان أسوأ منه أخوه محمود الذي ولي بعده فقتله أمراؤه سنة ٥٣٣ وخلفه عاما واحداً أخوه محمد، وتوفي فخلفه ابنه مجير الدين آبق. وكان باغيا ظالما، وكان يضع يده في يد الصليبيين ضد نور الدين صاحب حلب غير مراع إلا ولا عهدا. واستجار منه أهل دمشق مراراً بنور الدين حتى إذا كانت سنة ٥٤٩ اضطر إلى تسليمها إليه وخرج منها ذليلاً صاغرا. وكان تتش ولي تركامنيا يسمى أرتق بيت المقدس فاستقل به مؤسسا دولة الملوك الأرتقية، وتوفي سنة ٤٨٤ فخلفه عليها ولده سُكمان وإيلغازي، ومنهما أخذها ألافضل بن بدر المالي سنة ٤٩١ وتوجها إلى بلاد الجزيرة وملكا– كما يقول ابن خلكان– ديار بكر.

(د) الصليبيون[١]

كانت الدولة الفاطمية قد أخذت في التدهور منذ عهد الحاكم بسبب ما غرق الخلفاء الفاطميون فيه من ترف وما أصاب الحياة الاقتصادية من سوء حتى لقد عظمت المجاعة في عهد المستنصر (٤٢٧- ٤٨٧ هـ). وحاول بدر الجمالي أن يتلافى الأمور، فعمل على إصلاحها، ولكن الشام كانت قد أفلتت منه إلا ساحلها الجنوبي. وكان المظنون أن يرث السلاجقة تلك الدولة المنهارة، غير أنهم اتبعوا في حكمهم نظاما سرعان ما ضعضع دولتهم إذ اتخذوا فيها نظام الأتابكة، وهو أن يكون مع كل حاكم لبلد أتابك أو بعبارة أخرى قائد يدير أمرها، ولم يلبث نفوذ هؤلاء الأتابكة أن ازداد وأصبحوا هم الحكام الحقيقيين. وبذلك تفككت سريعاً أوصال دولتهم الضخمة وتحولت إلى دويلات على نحو ما مر بنا آنفا من دولة البوريين في دمشق والدولة الأرتقية في بت المقدس، حتى إذا قدم الصليبيون في العقد الأخير من القرن الخامس الهجري لم يجدوا أمامهم قوة تدفعهم دفعا إلى البحر المتوسط وما وراءه فلا السلجوقيون محتفظون بقوتهم القديمة التي أزالوا بها بيزنطة ودفعوها من آسيا إلى أوروبا ولا الفاطميون محتفظون بشيء من القوة يستطيعون أن يدفعوا به عن بلدانهم الساحلية في الشام هذا الوباء الصليبي الجارف.

ويظهر الجيش الصليبي أمام أسوار أنطاكية سنة ٤٩١ للهجرة ويظل محاصرا لها حتى يستولي عليها سنة ٤٩٢ مؤسسا بها إمارة، بينما يتسلل بلدوين إلى الرّها في سنة ٤٩١ وستولى عليها دون مقاومة تذكر ويؤسس بها إمارة هي الأخرى. واجتاز الصليبيون جبال النصيرية محاذين الساحل واستولوا سنة ٤٩٢ على بتي المقدس متخذين منه إمارة ثالثة جعلوا جود فري رئيسا لها، ولم يلبث أن رقى عرشها بعده بلدوين الأول وعهدوا إلى الكونت ريموند دي تولوز حصار طرابلس والاستيلاء عليها وظلت تقاومه سنين عددا حتى سقطت سنة ٥٠٢ واتخذوا منها إمارة رابعة لهم.وأخذ بلدوين في نفس السنة ينشط في غزو مدن الساحل: عكا وقيسارية وصيداء وبيروت وقاومته مقاومة صلبة. وخلفه أخوه بلدوين الثاني الذي استولى على صور سنة ٥١٨

---

(١) انظر في الصليبين كتب التاريخ العام لأبن الأثير وابن تغري بردي وابن خلدون وما كتب عنهم حديثاً في العربية واللغات الأجنبية وراجع تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان. ص ٣٤٥.

obeikandl.com

ولم يفلح في الاستيلاء على دمشق وظلت أيدي الصليبيين أقصر من أن تصل إلى بلدان الشام الداخلية مثل بعلبك ودمشق وحمص وحماة وحلب.

(هـ) آل[١] زنكي (نور الدين)

لم يلبث أن تنبه أتابك عظيم من أتابكة السلجوقيين هو زنكي عماد الدين التركماني أمير حلب إلى أن الداء إنما يكمن في تفرق البلاد الإسلامية المجاورة لحملة الصليب شيعا ودولا، فصمم أن يجمع قوتها وكلمتها تحت لوائه، وكان قد ركز لواءه على الموصل أولا، فضم إليه حلب ومدن شمالي الشام مثل حماة وحمص وبعلبك. ومضى ينازل الصليبيين واستولى منهم على معرّة النعمان وكفر طاب. ولم يلبث أن ضربهم ضربة قاصمة باستيلائه على مدينة الرَ ُها سنة ٥٣٩ للهجرة.وبذلك محا عار هذه الإمارة التي أقامها الصليبيون في بلب الدولة السلجوقية. ولم تكد تمضى سنتان على ما حقق من هذا المجد البطولي حتى امتدت إلى جثمانه الطاهر أيد آثمة في الظلام سفكت دمه الزكي.

وكان قد أوصى عماد الدين زنكي لابنه غازي بالموصل ولابنه نور الدين محمود بحلب، واقتفى البطل الشاب نور الدين جهاد أبيه للصليبيين، ونازلهم تواً سنة ٥٤٢ وأخذ منهم حصن أرتاح من أعمال حلب، وأبطل في إمارته أذان الدولة الفاطمية بحيّ على خير العمل. وفي سنة ٥٤٤ هزم حملة الصليب هزيمة ساحقة إذ قتل منهم ألفا وخمسمائة وفتح حصن فامية، واستولى على دمشق سنة ٥٤٩ كما مر بنا. وفي سنة ٥٥٢ ملك حصن شيرز بعد أن نقضه زلزال شديد. وفي سنة ٥٦٠ فتح بانياس عنوة. وكان بعيد النظر بعدا جعله يرى أن المفتاح الحقيقي للنصر على حملة الصليب هو مصر بإمكاناتها في المال والرجال ولكن ماذا يصنع وبها دولة منهارة، وأحس أن حملة الصليب يشعرون أنها لقمة سائغة وخاف عليها منهم خوفا شديدا. ولم تلبث أن واتته فرصة عظيمة فإن وزيرها ضرغاما وشاور تحاربا، ولجأ إليه شاور مستغيثا، فأنجده بأميرين أيوبيين: شيركوه وأبن أخيه صلاح الدين، ويحدثهما بما في نفسه من تخليص

---

(١)انظر في آل زنكي ونور الدين التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير وكذلك كتابه الكامل والجزء الخامس لابن خلدون ولخامس والسادس من النجوم الزاهرة والعاشر من المنتظم والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا والكواكب الدرية في السيرة النورية لابن قاضي شهبة (طبع بيروت) وابن خلكان ٣٢٧/٢، ٥ /١٨٤.

مصـر مـن دولتهـا المريضـة. وتتطـور الظـروف وتصـبح مصـر خالصـة لصـلاح الـدين ويؤسـس بـه الدولـة الأيوبيـة ومؤسسـها الحقيقـي ومنشـئها إنمـا هـو نـور الـدين. وكـان مـايني ينـازل حملـة الصـليب. وفـتح حصـون " مـرعش وإعـزاز وحـارم" وغيـر ذلـك ممـا تزيـد عدتـه علـى خمسـين حصـناً. وكـن ملكـا عـادلا عابـدا زاهـداً ورعـاً، بـين كثيـرا مـن المـدارس فـي بلـدان الشـام الكبـار وكثيـرا مـن الجوامـع وبيمارسـتان ودمشـق وبهـا تـوفي سـنة ٥٦٩ وخلفـه ابنـه وكـان صـبيا وبقـى علـى حلـب حتـى تـوفى سـنة ٥٧٧ ودخلـت فـي حـوزة صـلاح الـدين وحكمه.

obeikandl.com

٣

الأيوبيون (صلاح الدين) المماليك- العثمانيون

(أ) الأيوبيون[١] (صلاح الدين)

استقرت أمور الحكم وشئون الدولة في مصر في يد صلاح الدين سنة ٥٦٧ للهجرة، فعاد بمصر إلى الخلافة العباسية، وسار في نفس السنة لحرب حملة الصليب فاحصر الشوبك ورفع الحصار عنها، وعاد إليها في السنة التالية ثم تركها إلى مصر. وتوفي نور الدين كما ذكرنا وأخذ يفكر جادا في جمع كلمة البلدان المجاورة للصليبيين حتى يقضى عليهم قضاء مبرما. وخرج من مصر في سنة ٥٧٠ فاستولى على حمص وحماة والمعرة وكفر طاب، ويولي على حماة أخاه تقي الدين وعلي بعلبك ابن أخيه فرخشاه ويستولي على منبج وإعزاز ويواقع الصليبيين ي السنوات: ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥ وينصره الله عليهم نصرا عظيماً. ويستولي على الموصل، وتبلغه وفاة إسماعيل بن نور الدين. ويخرج إلى الشام سنة ٥٧٨ في جيش جرار لجهاد حملة الصليب، وهي آخر مرة يفارق فيها مصر لحربهم ويظل ينازلهم عشر سنوات طوالا، وتتبعه حلب ويولي عليها ابنه الملك الظاهر. وفي سنة ٥٨٢ يقسم البلاد بين أبنائه وأهله فيعطي مصر ابنه العزيز عثمان وكان قد أعطى الظاهر حلب، ويعطي للأفضل ابنه دمشق ويعطي حماة والمعرة ومنبج لابن أخيه تقي الدين عمر، وسيتوالى هذا التوزيع. وهو من اكبر أغلاط صلاح الدين فإن بساط قد يتسع لنوم عشرة من الرجال ولكن مملكة ضخمة لا تتسع لسلطان حاكمين، ولذلك لم تكد تمضي سنة على وفاته حتى دب الخلاف بين أبنائه ثم بين أمراء أسرته. ويغفر له ذلك بلاؤه العظيم في حرب حملة الصليب المعتدين.

---

(١) انظر في الأيوبيين وصلاح الدين كتب التاريخ العام: ابن الأثير وابن خلدون وخطط المقريزي ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ومفرج الكروب لابن واصل والروضتين وذيل الروضتين لأبي شامة والفيح القسي في الفتح القدسي والبرق الشامي للعماد الأصبهاني وسيرة صلاح الدين لابن شداد، وابن خلكان في تراجم صلاح الدين وسلاطين الدولة الأيوبية، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٣٥٠ عدا ما كتب عن صلاح الدين في العربية حديثاً وفي اللغات الأجنبية.

obeikandi.com

ويقود صلاح الدين في سنة ٥٨٣ جحافل جّرارة ويتجه بها نحو طبرية، وتتجمع له حشود الصليبين بقيادة جاي لوزيجنان ملك بيت المقدس وتلتقي سرية له في حيفا بجماعة من الداوية والإسبتارية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين فلا تبقى منهم باقية، ويلتقي الجمعان في سهل حطين إلى الغرب من بحيرة طبرية، وتدق أعناق حملة الصليب دقا شديدا ويفرّ على وجهه ريموند صاحب طرابلس ويستولي المسلمون على الصليب الأعظم صليب الصلبوت، ويؤسر ملك بيت المقدس وغيره من زعمائهم أمثال مقدم الداوية وريجنالد صاحب الكرك وكان قد أعد أسطولا وحاول غزو مكة والمدينة فقتله صلاح الدين بنفسه وعفا عن الباقين. وبلغ من كثرة القتلى والأسرى أن قال أبو شامة: "من شاهد القتلى قال: ما هناك أسير، ومن شاهد الأسرى قال: ما هناك قتيل" ومما يدل على كثرة أسراهم أن الأسير منهم كان يباع بثلاثة دنانير.

وحاصر صلاح الدين بيت المقدس بعد نحو ثلاثة أشهر، واستسلم له من فيه من حملة الصليب أزيلت كل آثارهم من القدس، وفتحت البلدان والقلاع وفي فلسطين وجنوبي لبنان أبوابها للبطل العظيم، واستولى على نابلس وحيفا وعكا وبيروت وصيداء والرملة وبيت جبريل (بئر سبع) وعسقلان وغزة وصفد والكرك والشوبك واللاذقية. وأحيا سقوط القدس في يد صلاح الدين فكرة الحرب الصليبية من جديد، فحمل الصليب فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وحاصر الأخيران عكا وسقطت في أيديهما وعاد فيليب إلى فرنسا وظل ريتشارد يقود الجيوش الصليبية حتى سنة ٥٨٨ وعقد صلحا مع صلاح الدين لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر على أن تظل لحملة الصليب المدن الساحلية من صور إلى يافا. وبعد نحو ستة أشهر توفي صلاح الدين بدمشق وبكاه المسلمون بدموع غزار في كل مكان. وكان صلاح الدين عادلا ورعا عالما تقيا، حطّ عن ظهور أهل الشام ما كان يبهظهم من الضرائب وملأها بالمدارس والخانقاهات والبيمارستانات وكانت سماحته ونبله في معاملة حملة الصليب مضرب الأمثال، وكان إلى ذلك بطلاً مغواراً وغيثاً مدرارا.

وذكرنا آنفا انه قسم البلاد بين أبنائه وأهل بيته، فكانت دمشق للأفضل ومصر للعزيز وحلب للظاهر، والديار الفراتية لأخيه العادل وبعلبك لبهرام شاه وحمص لشيركوه الثاني. وكان ذلك نذير شؤم فإن العادل أخذ يحرض أبناء صلاح الدين بعضهم على

بعض واستطاع التخلص منهم. وخلصت له البلاد من مصر إلى الفرات منذ سنة ٥٩٦ ما عدا حلب فإنها ظلت مع الظاهر وأبنائه حتى الغزو المغولي. وصنع صنعي أخيه فجعل مصر للسلطان الكامل ودمشق للسلطان المعظم والجزيرة الفراتية لثلاثة من أولاده على التعاقب هم الأوحد والفائز والأشرف موسى. ويغزو حملة الصليب مصر في سنتي ٦٠٩ و ٦١٥ وينكل بهم السلطان الكامل على نحو ما صورنا ذلك في قسم مصر. ونمضي إلى سنة ٦٢٦ وإذا فردريك الثاني ملك صقلية يأتي على رأس حملة إلى فلسطين وتصادف أن كان الكامل مشغولا بصراع مع داود ابن أخيه المعظم عيسى صاحب دمشق فارتضى أن يتنازل لفردريك عن القدس في مقابل عونه له ضد ابن أخيه وكان قد استعان بأخيه الملك الأشرف موسى ضده أيضا وحاصراه وتسلما منه دمشق وأعطاها الكامل لأخيه وعوض داود الشوبك بدلا منها.

وبمجرد أن تسلم فردريك القدس قامت قيامة الناس فلم يقم بها سول ليلتين وعاد إلى يافا مذمومًا مدحورا وتوفي الأشرف موسى صاحب دمشق سنة ٦٣٥ ولم يلبث أخوه الكامل أن توفي على أثره في نفس السنة بدمشق، وكان ابنه الأكبر الملك الصالح نجم الدين أيوب نائبا له على الشرق وإقليم ديار بكر، وكان ابنه العادل الصغير نائبا له على مصر فرأى أمراؤه أن يضيفوا إليه ملك الشام، ولم يُرض ذلك الملك الصالح فنحيّ أخاه في سنة ٦٣٧ عن ملك مصر وانتهز عمه إسماعيل صاحب بعلبك الفرصة واستولى في نفس السنة على دمشق ونشب صراع بينه وبين الملك الصالح واستعان ضده بحملة الصليب وعقد بينه وبينهم تحالفا أثار سخط العالم الإسلامي، وهزم الملك الصالح الحليفين في غزة سنة ٦٤٣ ودخلت دمشق في حوزته.

وبذلك أعاد الملك الصالح توحيد مملكة صلاح الدين من النيل إلى الفرات، ولم ينعم بذلك طويلاً غذ نزل به مرض شديد سنة ٦٤٧ وكان بدمشق وسمع بنزول لويس التاسع بدمياط،فأسرع لمنازلته وهو مريض محمول على محفة لشدة مرضه، وأتجه تواً للقاء العدو بالمنصورة شمال الدلتا في الطريق إلى دمياط، وهناك لبي نداء ربه مجاهدا مدافعا عن الإسلام والمسلمين. وكتمت زوجته شجرة الدر موته حتى قدم ابنه المعظم توران شاه من الجزيرة وأدار المعركة ضد لويس– كما مر بنا في قسم مصر– وسحق جيشه سحقا ذريعا، وكبله بالسلاسل والأغلال، إلى أن فدا نفسه وخرج من مصر.

وسوّلت له شياطينه أن يذهب إلى حملة الصليب في الساحل الشامي لعله يسترد كرامته التي أهدرت بمصر ويقي بين حملة الصليب نحو أربع سنوات لم تسفر عن شئ، فعاد إلى فرنسا كاسفاً مقهوراً. أما توران شاه فجزاه مماليك أبيه جزاء سنمار إذ سفكوا دمه الطاهر. ورقيت إلى العرش شجرة الدر ثم تنازلت عنه للمعز أيبك مملوك أبيه فأسس دولة المماليك. أما دمشق فاستولى عليها الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب. وكان آخر من حكمها من الأيوبيين.

(ب) المماليك[١]

تأسست في مصر بعد مقتل توران شاه سنة ٦٤٨ دولة المماليك، وعدّهم الحكام الأيوبيين في الشام مغتصبين للحكم من أصحابه الشرعيين، وأعدوا بزعامة الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب جيشا لحربهم، ولقيه المعز أيبك التركماني في غزة سنة ٦٤٨ وهزمه.وظلت العلاقات سيئة بين الطرفين حتى اصلح الخليفة العباسي بينهما لسنة ٦٥١ على أن يكون للمماليك نهر الأردن ونابلس والقدس وغزة والساحل، وللأيوبيين بقية الشام، وقد دفعهما إلى هذا الصلح اشتداد خطر التتار.وحاول الناصر يوسف أن يسترضى قائد هذا الوباء هولاكو سنة ٦٥٥ فأرسل إليه بهدية، ولم يلبث هولاكو أن اندفع بسيول التتار إلى بغداد سنة ٦٥٦ فأجرى الدماء فيها أنهاراً وخربها وأحالها أنقاضاً، ودخل هولاكو في السنة التالية ديار بكر ومَلك حران وبلاد الجزيرة، وتحقق الناصر أنه سيقصد حلب فتركها إلى شمالي دمشق، وفي شهر صفر سنة ٦٥٨ استولى التتار على حلب معملين فيها النهب والسلب، وتقدموا في ربيع الأول إلى دمشق واستولوا عليها، وفرّ الناصر يوسف وأسره التتار، وبقى معهم في ذلّ وهوان ما بعده هوان.

ومضى التتار يتقدمون في ديار الشام حتى عين جالوت بين نابلس ونيسان، وإذا الموت والتشريد ينتظرهم على يد المصريين والبطلين العظيمين المملوكين: قطز سلطان مصر والظاهر بيبرس قائده، وقد أحدقوا بهم ونازلوهم حتى أفنوهم قتلا. وتبع بيبرس

---

(١) انظر في المماليك النجوم الزاهرة وغيره من كتب التاريخ العام والسلوك للمقريزي والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا والبداية والنهاية وبدائع الزهور لابن إياس وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات وسيرة الملك المنصور (قلاوون) طبع القاهرة والتبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي وآخرة المماليك لابن زنبل وبروكلمان ص٣٦٥.

فلولهم إلى حلب وأطراف الشام. وأصبحت جميع الديار الشامية في قبضة المماليك ما عدا حماة فإن أميرها الأيوبي الملك المنصور ناصر الدين محمد سليل عمر بن شاهنشاه كان قد وضع يده في يد قطز وبيبرس في حربهما للتتار وظل على حماة حتى سنة ٦٨٣ وولاها قلاوون ابنه تقي الدين واستولى عليها الناصر بن قلاوون سنة ٦٩٨ ثم ردها إلى الملك الصالح المؤيد أبي الفدا إسماعيل سنة ٧١٠ وظلت معه حتى سنة ٧٣٢ ووليها بعده ابنه ألافضل ثم أصبحت للمماليك يولون عليها من يشاءون مثلها مثل بقية بلدان الشام.

وعُني الظاهر بيبرس حين أصبحت مقاليد الأمور بيده منذ سنة ٦٥٩ بالإعداد لحرب من تبقى من حملة الصليب في ساحل الشام وأخذ يغير عليهم وينازلهم، حتى إذا دخلت سنة ٦٦٤ خرج إليهم على رأس جيش جرار واستولى على قيسارية ويافا وأرسوف وكان بها حامية من الإسبتارية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين. وفي العام التالي على صفد وتبنين والرملة في فلسطين. وتوالى هجومه عليهم واستولى على الشقيف وطبرية وبغراس والقصير وحصن الأكراد والقرين من حصون صفد واكن به حامية م الفرسان التيوتون. وأعظم أمجاده الحربية ضد حملة الصليب أخذه أنطاكية سنة ٦٦٧ ويقال إن أسراها بلغوا مائة أل وأن الغلام من أهلها كان يباع باثني عشر درهما والجارية بخمسة. والمهم أنه محا هذه الولاية التي حملة الصليب في أول دخولهم للشام، وبدا في الأفق من حينئذ أن خروج حملة الصليب نهائيا من الشام أصبح قاب قوسين أو أدنى، وقد استولى منهم قلاوون في سنة ٦٨٦ على اللاذقية ولم يلبث أن استولى على طرابلس في سنة ٦٨٨ وبذلك أزال آخر إمارة أو ولاية لحملة الصليب، وسرعان ما سلمت بيروت وجبلة. حتى إذا تولى بعده ابنه السلطان خليل جهز جيشا ضخما للاستيلاء على عكا واستولى عليها سنة ٦٩٠ وتبعتها صور وصيدا وحيفا وأنطرطوس، وخرج من بقى من الصليبيين إلى البحر المتوسط وما وراءه يحملون الذل الضعة والهوان والصغار.

وقد قسم المماليك الشام إلى ست نيابات كبرى هي: دمشق وحلب وحماة في سوريا وطرابلس في لبنان وصفد في فلسطين والكرك في شرقيّ الأردن. وكانت دمشق أهم هذه النيابات، وكان حاكمها يعد نائب السلطان المملوكي في الشام مما أتاح له

مكانة خاصة. وجعل نفرا منهم غير قليل يطمح إلى أن يكون هو السلطان التالي للسلطان القائم بمصر ولعل ذلك ما جعل سلاطين مصر يكثرون من عزلهم، حتى ليتولى دمشق في زمنهم الذي امتد نحو مائتين وخمسة وسبعين عاما أربعة وسبعون نائبا. وقد درسهم (فييت) وتبين له كما ذكر في كتابه مساجد القاهرة ص ٥٦: أن أثنين منهم هما لاجين (٦٩٦- ٦٩٨) والمؤيد شيخ (٨١٥- ٨٢٤ هـ) رقيا إلى السلطنة، وسبعة وعشرين منهم ثاروا على السلطان فرّ منهم خارج الحدود اثنان وسجن خمسة وأعدم خمسة وعُفي عن خمسة. وكان لنائب دمشق من الدواوين مثل ما لسلطان مصر وكثيراً ما كان ينقل رئيس ديوان في القاهرة إلى دمشق وبالعكس، وكثر ذلك في كتاب السر والإنشاء. وبذلك كله كانت مشق تعد المدينة الثانية في دولة المماليك مما عاد عليها بغير قليل من الازدهار. وأمر الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٣ أن يتولى القضاء أربعة يمثلون مذاهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وعمَ ذلك في دمشق والمدن الكبرى بمملكته في مصر والشام، وظل هذا النظام قائماً طوال زمن المماليك.

وظل التتار يئنون من عار الهزيمة الفاضحة في عين جالوت، وظلوا يحاولون غسل هذا العار بغارات فاشلة على أطراف الشام، وكسرتهم جيوش الظاهر بيبرس مرارا، من ذلك كسرتهم على حمص سنة ٦٥٩، وأغاروا على إلبيرة سنة ٦٦٤ وعلموا بتحرك بيبرس فولوا مدبرين. وفي سنة ٦٦٨ أغاروا على نهير الساجور بمنبج وسعران ما انهزموا، وعاودوا الهجوم على عِينتاب وحارم سنة ٦٧٠ وساعدهم حملة الصليب فحاقت بهم الهزيمة جميعاً وظلوا يعاودون المناوشة وهاجموا إلبيرة في سنة ٦٧١ وأشرفوا على أخذها فعبر إليهم الظاهر الفرات وقتل منهم مقتلة عظيمة، وتغني الشعراء طويلا بهذا النصر المبين، ونكل بهم في سنة ٦٧٥ تنكيلا شديدا. وظل التتار يعاودون هذه الغارات والمناوشات في عهد قلاوون ويبوءون منها بالهزيمة، وقد استولى منهم ابنه السلطان خليل على قلعة الروم غربي الفرات سنة ٦٩٢. وتولى شئون التتار غازان وكان قد دخل في الإسلام مع جنوده. ومع ذلك أعد في سنة ٦٩٩ حملة لغزو الشام ولقيه محمد الناصر بن قلاوون بين حمص وحماة ودرات الدوائر على الناصر، واستولى جيش غازان على دمشق وغيرها من مدن الشام وعاثوا فيها فسادا. وعاد الناصر إلى مصر وجهز جيشا جرارا التقى به مع التتار قرب دمشق سنة ٧٠٢

وسحقهم سحقا ذريعا، بحيث لم يعدوا يفكرون في غزو الشام وإن هم فكروا ارتدوا إلى صوابهم سريعاً.

ونمضي إلى سنة ٨٠٣ فيقدم تيمورلنك بجموعه غازياً الشام، ويلقاه جيش المماليك، فيهزمه ويقتحم حلب ويُعمل فيها السيف والسلب النهب، ويتقدم إلى دمشق وينزل بالسلطان فرج في طريقة إليها هزيمة نكراء. وترضى دمشق بالتسليم وينهبها جنوده التتار ويشعلون فيها النيران وتأتي على جامعها الأموي وعلى كثير من آثارها، ويقتلون مالا يكاد يحصى من أهلها نساء ورجالا وأطفالا: كارثة لم يُصب دمشق مثيل لها لا من قبل ولا من بعد. وضاعفها أن تيمور جمع رجال الفن والهندسة والمعمار وصناع الزجاج والصلب وأخذهم معه إلى عاصمته سمرقند.

وتتحدث كتب التاريخ عن ثورات وفتن حدثت في الشام لعهد المماليك، غير أن أكثرها إن لم تكن كلها، إن كانت صراعا على السلطة بين السلاطين ونوابهم في الشام، ومن هذا الصراع ما حدث من تحل الملك من المماليك البحرية إلى المماليك البرجية الجراكسة على يد برقوق سنة ٧٨٤. وقد عانت الشام- كما عانت مصر- من النزاع المستمر بين أمراء المماليك، حتى كانوا يقتتلون كل مع أنصاره في شوارع دمشق والقاهرة. وكثر ذلك في القرن الأخير من حكم المماليك، وأخذت دولتهم في الضعف تدريجا حتى لفظت أنفاسها الأخيرة في معاركها مع السلطان سليم العثماني على أبواب الشام في مرج دابق.

(جـ) العثمانيون[١]

قضى سليم الأول العثماني على دولة المماليك في الشام ومصر بعد هزيمته لقانصوه الغوري في موقعه دابق سنة ٩٢٢ للهجرة. وبعد أربعة أيام من الموقعة دخل حلب ولقيه أهلها بترحاب شديد وأوقدوا له الشموع وتعالت أصواتهم له بالدعاء، وخطبوا له على منابرها. وفتحت له مدن الشام أبوابها، فاستولى على دمشق وقصده فيها أمراء لبنان وخاصة من بني معن الدروز النازلين بجبالها مما جعل سليمان ومن خلفوه من

(١) انظر في العثمانيين بدائع الزهور لابن إياس، وآخره المماليك لابن زنبل وتاريخ الجبرتي والخطط التوفيقية لعلي مبارك والبلاد العربية والدول العثمانية لساطع الحصري، ومقدمة تاريخ العرب الحديث لعبد الكريم غرابية وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٤٤٨، وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى.

سلاطين آل عثمان يعترفون لهم بالإمارة في لبنان. ومضى سليم يستولي على بقية مدن الشام. وفتح مصر وظل بها ثمانية اشهر وعاد منها إلى دمشق، ورأى بوضوح تدهور الأوضاع الاقتصادية في تلك الديار بسبب اكتشاف البرتغاليين لطريق راس الرجاء الصالح والنفوذ منه إلى الهند ونقل توابلها وتجاراتها منه مما أضر إضرارا شديدا بطريق البضاعة الهندية القديم خلال حلب والشام. وكانت حروب الصليبين والتتار التي حولت الشام إلى ساحة حرب كبيرة لمدة قرنين من الزمان قد أحالت أجزاء كثيرة من مدنها إلى خرائب وخاصة مدن الساحل. وكأنما توسّم أهل الشام أن العثمانيين سيعيدون إلى طريق التجارة الهندسية ازدهاره الماضي، ولذلك رحبوا بسليم والعثمانيين، وتلاشي هذا الحلم مع الأيام. وكان قد فرّ إلى سليم من المماليك مملوك خائن هو الغزالي الذين زين له فتح الشام ومصر فكافأه بتوليته على الشام ما عدا حلب إذ جعلها لبعض الباشوات العثمانيين وبمجرد أن توفي سليم الأول سنة ٩٢٦ أعلن الغزالي استقلاله بالشام ولقب نفسه بالملك الأشرف، وسرعان ما هزمته الجيوش العثمانية وخر صريعا عند أبواب دمشق. ورأى العثمانيون أن تتوزع الشام ثلاث نيابات على رأس كل نيابة باشا: أولاها نيابة حلب وتشمل سوريا الشمالية. وثانيتها نيابة طرابلس وتشمل أربعة سناجق أو ألوية هي: حمص وحماة وسلمية وجبلة، وثالثتها نيابة دمشق وتشمل عشرة سناجق أهمها بيروت وصيداء ونابلس وبيت المقدس وغزة. وفي سنة ١٠٧٣ خصوا صيداء بنيابة مستقلة تشمل ساحل الشام ما عدا نيابة طرابلس في لبنان.

وكان يساعد الوالي في الإدارة ديوان: ديوان كبير مؤلف من السردار أو رئيس العسكر والدفتردار أو مدير الخزانة والروزنامجي أو حافظ السجلات وقاضي القضاة وأمير الحج ورؤساء المذاهب الفقهية الأربعة. وبجانب هذا الديوان ديوان صغير خاص بنائب الوالي ومعه دفتردار وروزنامجي.. ومُنح أصحاب السناجق أو الألوية لقب بك. وكثير من الولاة كانوا يختارون من الإنكشارية وهم شبان أوربيون من أجناس مختلفة كانوا يربون تربية إسلامية عسكرية وكان هم الوالي منهم أن يجمع لنفسه في مدة ولايته القليلة ما يستطيع من الأموال مما جعلهم يرهقون أهل المدن بالضرائب، وقلما كان حكم الوالي يتجاوز المدينة وضواحيها. أما دخل البلاد فقد تُرك للإقطاعيين من سكان الشام ومن وراءهم من بدو الجزية وكان عددهم قد تزايد زيادة كبيرة منذ زمن المماليك،

وكـان أكثـرهم مـن الـدروز مثـل آل معـن وآل أرسـلان والشـهابيين ومـن التركمـانيين مثـل آل عسـاف ومـن البـدو مثـل آل فضـل. وفـي كـل مكـان نـد هـؤلاء الإقطـاعيين مثـل آل حرفـوش ببعلبـك آل فـريح فـي البقـاع وآل جبـار فـي سـلمية ولـم يكونـوا يـؤدون للعثمـانيين أو البـاب العـالي إلا ضـرائب محـدودة، وخاصـة أن المـوارد كانـت قـد تضـاءلت إذ تـدهورت التجـارة وتـدهورت أيضـا الزراعـة. ويـدل علـى فسـاد الحكـم العثمـاني واضـطرابه فـي الشـام كثـرة مـن كـانوا يولـون ويعزلـون مـن الـولاة، حتـى ليـولي علـى دمشـق فـي مائـة وثمـانين عامـة مائـة وثلاثـة وثلاثـون باشـا أو وليـاً، ممـا جعـل فخـر الـدين مـن آل معـن الـدروز (٩٩٠-١٠٢٣ هـ) يسـيطر علـى أكثـر أرجـاء الشـام مـن أنطاكيـة إلـى صـفد لنحـو نصـف قـرن، وأذن لفلرونسـا بإقامـة قنصـلية لهـا فـي بـلاده ولـم يـر بأسـاس مـن الإذن لفرنسـا بفـتح فنـدق فـي صـيداء وأذن للمبشـرين المسـيحيين بالتبشـير بـين المسـلمين والـدروز. وتنبهـت لـه أخيـرا الدولـة العثمانيـة فأرسـلت إليـه جيشـا لتأديبـه ففـر مـن الـبلاد راكبـا البحـر إلـى صـديقه فرديناند أميـر توسـكانيا. ونمضـي إلـى سـنة ١١٦٤ هـ / ١٧٥٠م فيبسـط ضـاهر العمـر صـاحب صـفد سـلطانه علـى عكـا ويعلـن اسـتقلاله وعصـيانه للبـاب العـالي بفضـل معونـة علـي بـك الكبيـر المملـوك المشـهور أيضـا بعصـيانه للعثمـانيين ومحاولتـه الاسـتقلال عـنهم بمصـر. ويحاصـر العثمـانيون ضـاهر العمـر وتدركـه المنيـة سـنة ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥م. ويليهـا بعـده أحمـد الجـزار ويلعـب دورا شـبيها بـدور ضـاهر العمـر ويحصّـن عكـا.وعبثـاً يسـتطيع نـابليون فتحهـا ويضـطر إلـى رفـع حصـاره عنهـا بعـد ثلاثـة أشـهر، إذ بـاء حصـاره لهـا بالإخفـاق الـذريع سـنة ١٢١٣ هـ /١٧٩٩م. وكانـت الأحـوال الاقتصـادية فـي الشـام تتـردّى مـن سـيئ إلـى أسـوأ طـوال الحكـم العثمـاني، وظـل كابوسـه جاثمـا علـى صـدر البـلاد طوال القرن التاسع عشر الميلادي بل طوال شطر كبير من العصر الحديث.

openkandil.com

٤

المجتمع(١)

حين دخل العرب الشام وجدوا فيها أخلاطاً من أجناس شتى لموقعها على أبواب آسيا الغربية وفي قلب الشرق القديم ولكثرة من نزلوها من الكنعانيين الفينيقيين ومن الفلسطينيين الأوربيين القدماء وكثرة المهاجرين إليها من البابليين والكلدانيين والحيثيين والآشوريين والآراميين والعبرانيين واليونانيين والرومانيين ومن العرب أنفسهم: الغساسنة وغير الغساسنة. وهذا الخليط من الأجناس في الشام ربما هو الذي هيأها من قديم لأن تكثر فيها الدويلات والمدن المستقلة بعضها عن بعض.

وأخذ الإسلام سريعا يضم هذا الشتات الجنسي في وحدة سياسية بل سرعان ما أصبح لواء الشام يضم العالم الإسلامي جميعه في وحدة عربية منذ رقى إلى عرش الخلافة معاوية مؤسس الدولة الأموية، إذ اتخذ دمشق حاضرة لهذا العالم، واتخذ من أهلها عونه في الحكم وإدارة دفة الأمور في هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف. وبذلك كانت كنوز هذه الإمبراطورية تتدفق إلى دمشق والشام وعاش أهلهما طوال العصر الأموي في رخاء لم يبلغه هذا الإقليم في أي عصر من عصوره.

ومر بنا وصف سريع لجغرافيتها وأنها كثيرة الأنهار والوديان والعيون والزروع، ومن قديم تنتج العنب والفواكه وصنوف النقل من فستق وغير فستق إلى ما تنتج من قمح وغير قمح. ومن قديم أيضا عُني أهلها بالصناعات: صناعات الخزف الملون والخشب المحفور أثاث وغير أثاث والمعادن والأسلحة سيوفا وغير سيوف والزجاج الملون والقاشاني ونقش الفولاذ بالذهب والفضة ونسج الأقمشة والعمارة.

وحياة الشام بذلك كانت تقوم على إتقان كثير من الصناعات والزروع، وأيضاً على المهارة في التجارة، وكانت نافذة كبرى لتبادل تجارات آسيا وأوربا من قديم، وظلت

---

(١) انظر في مجتمع الشام كتب التاريخ العام وفتوح البلدان لبلاذري وأدب الكتاب للصولي وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي وثمرات الأوراق لابن حجة الحموي والجباية في الشام لمحمد كرد علي في الجزء الأول من محاضرات المجتمع العلمي العربي بدمشق.

obeikandi.com

تجاراتها تكون مصدرا أساسياً لثروتها في عهد الفينيقيين وبعدهم حتى احتلال العثمانيين لديارها، فقد كانت من أعتق الأزمنة إلى نهاية زمن المماليك الباب الكبير لمرور توابل الهند وعُروش آسيا إلى الغرب. ومهر أهلها في التجارة ومعرفة أسرارها والقدرة على إغراء الأسواق التجارية ومعرفة متطلباتها من لُبان جنوبي الجزيرة العربية ونباتات العطور والعقاقير، مما أتاح لكثير من تجارها على مر الأزمنة الثراء الطائل.

وتحف الشام في الشرق بوادي الجزيرة العربية، كان لذلك أثره البعيد في تكوين سكانها فأكثرهم نزحوا إليها قديما من الجزيرة على نحو ما هو معروف عن الكنعانيين والآراميين والعبرانيين، وقد ظلت أبوابها الشرقية مفتوحة على مصاريعها لبدو الجزيرة، مما جعل الغساسنة يقيمون على الحدود بينها وبين الجزيرة دولتهم الغسانية. لا يقفون هم ومن كانوا وراءهم من البدو عند الحدود بل يتغلغلون إلى داخل الشام، حتى ليمكن أن يقال إنه قد أخذ في التعرب قبل الإسلام. وظل بدو الجزيرة طوال الأزمنة الإسلامية يكونون شطرا مهما في سكان الشام، وكان الشطر الثاني، وهو الأكبر، متحضرا ويقيم في المدن. وبذلك كان سكان الشام ينقسمون طوال الحقب الإسلامية إلى بدو وحضر. وكان البدو يعتمدون على الأغنام والأنعام، بينما كان الحضر يعتمدون على الزراعة والصناعة والتجارة. وكان حكام مصر والشام يقربون زعماء البدو، ولكي يدرءوا عن الشام شرهم كانوا أحيانا يقطعونهم بعض مدن فلسطين على نحو ما هو معروف من إقطاع الفاطميين للمفرج بن دغفل مدينة الرملة.

على كل حال كان اعتماد الشام في حياتها الاقتصادية طوال الحقب الإسلامية على سكان الحضر وما يؤدونه للدولة من الخراج والعشور والجوالي أو الجزية، وكانت ضريبة محدودة قلما زادت عن دينارين، وكانت تؤخذ من أهل الكتاب: النصارى واليهود نظري عدم انتظامهم في الجيش العربي. وهي بذلك كانت ضريبة دفاع ولم تكن تؤخذ إلا من القادرين، أما النساء والأطفال والشيوخ والقساوسة والرهبان فلا تؤخذ منهم البتة.

وحين عقد عمر بن الخطاب مؤتمر الجابية سنة ١٦ للهجرة أوصى عماله أن يرفقوا بالرعية فيما تؤدي من ضرائب للدولة، وبلغ خارج الشام على عهده– كما يقول الصولي – خمسمائة ألف دينار. وبمجرد أن أصبحت الخلافة خالصة لمعاوية جعل خارج كل من دمشق وقنسرين أربعمائة وخمسين ألف دينار، وخراج كل من فلسطين

والأردن مائة وثمانين ألفا. وأخذ يهب بعض أصفيائه إقطاعات واسعة، وتارة يكون الإقطاع إقطاع تمليك، وتارة يكون إقطاع استثمار، وكان عثمان بن عفان أول من سنّ هذه السنة في الإسلام.

وجاءت معاوية كنوز الأرض فكان يكثر من توزيعها على الشخصيات المهمة في قريش والأنصار وعلى زعماء القبائل في الجزيرة العربية والعراق، وعُنى عناية واسعة بأبهته ونفقاته، وبنى لنفسه داراً كبيرة في دمشق سماها " الخضراء" ودورا أخرى في مكة، وسن للخلفاء الأمويين من بعده البذخ. ويُروى أنه كان يستقبل من عماله هدايا العيدين الفارسين: عيد النيروز وعيد المهرجان، ولابد أن كانت تقدم له الهدايا في أعياد النصارى لما انعقد بينه وبينهم من علاقة وثيقة، ولما منحهم من الإشراف على الشئون المالية للدولة، وخاصة سرجيوس وأسرته، وأيضا لابد أن كانت تقدم له الهدايا في الأعياد الإسلامية.

ويبدو أن الدولة ظلت تنعم برخاء واسع بعد معاوية، مما دفع الوليد بن عبد الملك إلى تشييد الجامع الأموي بصورة هندسية بالغة الفخامة في زخرفته وتصويره، وقد استقدم– كما مرّ بنا– لصنع الفُسيفساء في جره وفصوصه اثنى عشر ألف عامل من بيزنطة، غير من استقدمهم في تشييده ونقشه من مصر وفارس، وقد مُلت فيه أشجار وفرعت أغصان منظومة بالفصوص المذهبة، ويقال إنه أنفق فيه خراج الشام سنتين وكان خراجها على عهده مليون دينار ومائتي ألف، وفي رواية أنه أنفق عليه أحد عشر مليونا من الدنانير ومائتي ألف. وعُد الجامع عجيبة من عجائب الدنيا، وبه حظيت دمشق بمج وشهرة عظيمين، ويبدو أن الوليد زاد، بسبب هذه النفقة الباهظة على جامعه، الضرائب على أهل الشام، أو لعل أخاه سليمان الذي خلفه هو الذي صنع ذلك. ويخلفه عمر بن عبد العزيز فيأمر عماله أن يأخذوا أهل الكتاب من النصارى واليهود بالرفق وان تُمنع السخرة منعا باتا كما يمنع أخذ الضرائب على الجسور والمعابر وأن يكتفي في المعادن بالصدقة ولا يؤخذ منها العشر. وأمر أمرا صارما أن تُرفع الجزية عمن أسلموا من الموالي بحيث يسوّي بينهم وبين المسلمين في الخراج والعشور. ويتوفى عمر فيعود العمال إلى الضرائب الاستثنائية ظلما وعدوانا. ولابد أن نذكر للأمويين أن الشام كانت تحظى برخاء غير قليل في أيامهم، وبشهد بذلك ما

شادوه في دمشق والبوادي من قصور، وقد أصبحت دمشق بفضلهم عاصمة ومدينة عربية كبرى.

وكان المجتمع الشامي في دمشق وغير دمشق يتألف من ثلاث طبقات: عليا ووسطى ودنيا، والطبقة الأولى تشمل الحكام وكبار الموظفين في الدواوين وأصحاب الثراء الطائل من التجار والإقطاعيين. وتشمل الطبقة الوسطى العلماء وأوساط الزراع والتجار والصناع، أما الطبقة الدنيا فهي طبقة العامة من صغار الفلاحين والعمال. وكان يتبع هذه الطبقة الرقيق الذي يؤسر في الحروب أو يبيعه النخاسون، وكان أخلاطا من البيزنطيين والأوربيين وألافريقيين. وظلت هذه الصورة لطبقات المجتمع الشامي متصلة طوال الحقب التالية، مع ما حدث للشام من تحول الخلافة منها إلى بغداد، ومن مشرفة على الدولة الإسلامية الكبرى إلى ولاية منذ أن استولى العباسيون على أداة الحكم. وكان من أهم أعمالهم فيها إنشاء المراكز العسكرية على حدودها مع الروم المعروفة باسم العواصم والثغور، وكانت جيوشهم ماتني تخرج منها لحرب الروم. محدثة فيها غير قليل من الرواج التجاري.

وكان العباسيون في القرن الأول من خلافتهم يأخذونها بغير قليل من الرفق واللين. ويروى أن بعض ولاة الخراج بها لعهد هارون الرشيد شدّد في استخراج الأموال من أهلها فسخط عليه الريشد سخطا شديدا وأنزل به عقابا صارما، قائلا له: وليت الشام وهي جنات وعيون وجعلتها أجرن من الصخر وأوحش من القفر. وحين ضمها ابن طولون إلى دولته في مصر أخذت تنتعش وخاصة في عهد خمارويه لكثرة ما كان يُجرى على الناس في رعيته بمصر والشام من الأموال ولما كان ينفقه على جيشه بها من الأرزاق، وقد بنى لنفسه بالقرب من دمشق قصرا فخمًا. وعُنى الإخشيد بالشام، كما عنى بها كافو. وكانا يكثران من الخلع والهبات على أهلها، وكانت حلب والثغور بيد الحمدانيين وفرضوا فيها ضرائب ثقيلة.[١]

وتتبع بقية الشام مصر أيام الفاطميين حقبا متصلة، وعلى الرغم من أن المقدسي يقول إن ضرائب العروض والسلع التجارية فيها هينة لزمنه في أواخر القرن الرابع

(١) اضطرت الحمدانيين إلى ذلك حروبهم مع بيزنطة يقول المقدسي أن الضرائب كانت ثقيلة كانت ثقيلة حينئذ على العواصم والثغور وإنها كانت ثلاثمائة وستين ألف دينار.

الهجري فإن من المؤكد أن الضرائب زادت واضطربت تبعا لكثرة الولاة الفاطميين وعمل كل منهم على جمع كل ما يستطيع من الأموال لنفسه، فكانت تدخل على الضرائب والجبايات زيادات ترهق العشب الشامي إرهاقا شديدا، وبلغ هذا الإرهاق غيته في ولاية المعلى بن حيدرة الكتاني لها سنة ٤٦١، حتى هجر الفلاحون مزارعهم في الغوطة بدمشق وغي الغوطة، وعظم شغب العامة سخطا على هذا الظلم الصارخ وشبت النار حينئذ في الجامع الأموي العظيم، وكادت أن تذهب ببهائه ورونقه لولا أن تداركه الناس. ولعل أحداً لم يصور ما كان يقع على أهل الشام من ظلم فادح في جمع الضرائب دون أن تستخدم في مصالح الرعية كما صور ذلك أبو العلاء ساخطا بمثل قوله:

وأرى ملوكاً لا تحوط رعية　　فعلام تؤخذ جزية ومكوس

وما نصل إلى سنة ٤٦٨ حتى تتحول دمشق إلى السلاجقة، وينحسر الحكم الفاطمي إلى الجنوب. وما نكاد نشرف على نهاية القرن الخامس حتى تأتي جحافل الصليبيين وتستولي على ساحل الشام منذ سنة ٤٩٢. ويتدارك طغتكين أتابك الدولة البورية نسخة من النسخ القرآنية التي وزعها عثمان في الأمصار كانت بطبرية فينقلها إلى دمشق، وكان ذلك عملا جليلا زاد دمشق مجدا وجلالا، وخلص له الأمر بها. ومن أهم ما قام به بناء مارستان وخانقاه وأول مدرسة أنشئت بها. وتصبح الشام ساحة حرب كبرى أيام الصليبيين، ولا يقر لأهلها قرار.

وأخذ حكام الشام من الأرتقيين أصحاب دمشق وغيرهم يضيفون بعض ضرائب استثنائية لجهاد الصليبين والإنفاق عليه. وكان طغتكين عادلاً، ولكن أبناءه أخذوا يرهقون الدمشقيين بالضرائب الاستثنائية وصنع صنيعهم حكام المدن الأخرى، حتى إذا نهض عماد الدين زنكي واستولى على شمالي الشام، وكان قد أصبح خراباً من ظلم الولاة ومن حرب الصليبيين، نشر يه العدل وفتح الرها وامتلأت كل هذه البقاع أهلاً وسكانا.

وخلف عماد الدين زنكي ابنه نور الدين محمود، وحين خضعت له دمشق وحمة وبعلبك وغيرها من المدن الشمالية أبطل كل م كان بها من الضرائب الاستثنائية على

الأسواق وما يباع فيها من الفواكه والبقول والحلوى والغنم والجبن واللبن. وسار نفس هذه السيرة بعده صلاح الدين فألغى جميع المكوس والمغارم من ديار الشام وسامح الناس في أموال عظيمة. ووزع في عماله منشورا جاء فيه: إن أشقى الأمراء من سمّن كيسه، وأهزل الخلق وأبعدهم من الله من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق، وعم الرخاء في عهده وعهد نور الدين ديار الشام لكثرة ماصبا في جحور الناس من القناطير المقنطرة من أموال حملة الصليب المدحورين. وسار بعد صلاح الدين سيرته في حط المغارم عن كواهل الناس أخوه السلطان العادل ويقال إن مجموع ما خص دمشق من ذلك لعهده بلغ مائة ألف دينار. وقد عاد بعض هذه المغارم والمكوس في بعض بلدان الشام بأخرة من أيام الأيوبيين وخاصة في بعلبك ودمشق حين أظلهما حكم الصالح إسماعيل.

وقد يكون من المفارقات أن نعرف أنه على الرغم من الحروب التي كانت متصلة بين أهل الشام وحملة الصليب نشطت التجارة بينهما نشاطا واسعا، فتجار المسلمين ينزلون بلادهم وحصونهم وبالمثل ينزل حملة الصليب بلاد المسلمين حاملين لسلعهم ومشترين سلعاً جديدة. وكأن الحرب شئ والتجارة شئ آخر، ويعرض علينا أسامة بن منقذ في كتابه " الاعتبار" صوراً لافتة من تواصل الحياة بين العرب المدنيين والصليبيين. ورأى ذلك ابن جبير رأى العيان ووصفه في رحلته المشهورة متعجباً قائلاً: من أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين: مسلمين ونصارى، وقد يلتقي الجمعان ويتقاتلون وتجارهم تختلف بينهم دون اعتراض، وهكذا دائما أهل الحرب من الفئتين مشتغلون بحربهم، والناس من ورائهم– كما يقول ابن جبير– في عافية: يتعايشون ويتبادلون السلع وعروض التجارة، وكان حملة الصليب يرسلون ببعض هذه العروض في سفن لهم كان تجوب البحر المتوسط والمحيط الأطلسي حتى السويد. وورثت الشام عنهم ذلك حين جلوا عنها فكانت تجاراتها تتغلغل في البلاد الأوربية.

ولم نعرض حتى الآن لما كان في المجتمع الشامي طوال هذه الحقب من فنون اللهو. وكان طبيعياً والشام دائماً حاملة للسيف أن يشيع فيها مبكرا سباق الخيل واللعب بالصوالجة والتنافس في إحسان الرماية. وكان أهلها يحارشون أحيانا بين الكباش والكلاب، وكانوا يخرجون للصيد. وكانت أسواقهم تموج بالأقمشة الحريرية وبالطيب

والعطور. وعُنى خلفاؤها الأمويون مبكرين بالغناء وبدأ ذلك منذ عبد الملك بن مروان الذي استقبل ابن مسجح مغني مكة وغناه الغناء المتقن على نحو ما أشرنا إلى ذلك في كتابنا الشعر والغناء في المدينة ومكة واستقبل أيضا بديحا واستمع إلى غنائه، واستقبل ابنه الوليد بعده ابن سُريج مغني مكة. وتحول يزيد بن عبد الملك بقصره إلى مسرح لمغني الحجاز من أمثال معبد وابن عائشة، واشترى جاريتين من جواري المدينة المغنيات، وهما حبابة وسلامة القس، ووصفه أبو حمزة الخارجي، فقال إنه يشرب الخمر ويلبس الحُلة قومت بألف دينار.. حبابة عن يمينه وسلامة عن يساره". ونشأ ابنه الوليد في هذا الجو المشبع بالترف والخمر والغناء، وكان شاعرا بارعا وله خمريات تكتظ بها ترجمته في كتاب الأغاني، وحين استولى على مقاليد الخلافة بعد عمه هشام تحول بقصره إلى مقصف للخمر والعزف والغناء، وندماؤه من حوله يشاركونه قصفه ولهوه وطربه، وكاد أن لا يترك مغنيا مشهورا في المدينة أو مكة إلا استقدمه وعقد له في قصره مجالس للطرب والسماع، ويقول أبو الفرج في ترجمته إنه " كان يضرب بالعود ويوقع بالطبل ويمشي بالدف على مذهب أهل الحجاز".

ولا ريب في أن شيئا من ذلك كان ينعكس على أهل الشام في دمشق وغير دمشق. إذ يوجد في كل زمن منحرفون ينغمسون في اللهو والخمر وشرب الدنان، وكان يهيئ لهم ذلك في الشام كثرة ما يزرع فيها من كروم وكثرة ما كان بها من أديرة.و كانوا يشربون في الطبيعة بين الأزهار وغناء الطير وفي قاعات الأديرة والبيوت، وكانوا يفرشون القاعات بالورود والنرجس والأقحوان والأزهار المختلفة. وكان يكثر في تلك المجالس سماع المغنين وهم يعزفون على آلات الطرب المختلفة. ويسوق ابن حجة الحموي في كتابه ثمرات الأوراق خبرا طويلا عن جماعة من كتاب القرن الرابع الهجري كانوا قاصدين مصر. فنزلوا بدمشق في طريقهم، والتقوا فيها بشاب أضافهم. فقبلوا الضيافة وأمضوا في منزل ليلة ماجة أحضر لهم فيها نبيذا على عشائهم، فشربوا، وسرعان ما خرجت عليهم طائفة من الجواري ما بين عوادة وطنبورية وزامرة وصناجة ورقاصة ودفافة وهن يلبسن فاخر الثياب والحليّ وسألهم في الصباح أتحبون الذهاب إلى بعض البساتين للتفرج أو الجلوس في المنزل واللعب بالشطرنج والنرد أو القراءة في

الكتب. والخبر تداخله مبالغات تجعله أشبه بأسطورة، لكنه على كل حال يدل على ما كان بدمشق من فنون لهو.

ولا ريب أن في أن حرب أهل الشام بعد ذلك مع حملة الصليب أتاح لهم كثرة من الجواري الأوربيات المسترقات. ويبدو أنهن كن من عوامل شيوع البغاء، إذ نقرأ في تراجم نور الدين وصلاح الدين والعادل أنهم طهرّوا البلاد من الفواحش والخمور والقمار. وكانت هناك دور النخاسين تحمل الجواري من كل جنس وكل بلد. ويدل على كثرة الجواري في الشام من بعض الوجوه أن نجد فقيها دمشقيا توفي سنة ٦٣٢ هو عبد السلام بن المطهر بن أبي عصرون يروى عنه أنه كان ببيته نيف وعشرون جاريه فما بالنا بأهل الثراء وبالحكام وكبار الموظفين ذوى الرواتب الضخمة. ولم يقف المنحرفون بالمجتمع في لهوهم حينئذ عند شرب الخمر. فد أخذ يشيع بينهم شرب الحشيش، ولذلك أمر الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٥ بهدم دور الحشيش والخمر جميعا وإقامة الحدود بشدة على من يتعاطونهما. ومن حين إلى آخر نسمع عند بعض السلاطين يمثل هذا الأمر، ولكن المجّان كانوا يعودون إلى تعاطيهما ولا يزدجرون. وظل الغناء مزدهراً طوال زمن المماليك، ونجد مغنياً بدمشق يلزم واليها تنكر نائب الناصر محمد بن قلاوون ويختص به ويعلم جواريه الغناء، وكان يعاصره شمس الدين الدمشقي محمد بن علي وكان يجيد العزف واللعب بالقانون وينظم الشعر ويلّحنه ويأخذه عنه الملحنون وأهل الملاهي.

وظلت الشام تعيش في رخاء إلى نهاية القرن الثامن الهجري إلا فترات كانت تدب فيها وخاصة في دمشق الفوضى بسبب ما كان يحدث فيها من نزع بين الأمراء على السلطة كما حدث في السنوات ٧٥٣، ٧٦٢، ٧٩٠، ٧٩٦، ٨٠١ ولعل هذا كان أحد العوامل في انتصار تيمور لنك السريع على المدافعين عن حلب وما وراءها من البلدان إلى دمشق، وقد عاث جنوده فيها– كما مرّ بنا– نهبا وسفكا للدماء. وعلى الرغم من أن دمشق استسلمت له بميثاق أو عهد أخذه على نفسه أن لا يمس أهلها بأذى لم يكد يدخلها مع جنده حتى نكث عهده وميثاقه فسبى جنوده النساء وشدوا الرجال والأولاد في حبال وأشعلوا النار في المنازل والدور والمساجد ثلاثة أيام فاحترقت المدينة، وسقطت سقوف الجامع الأموي وصارت دمشق أطلالا عافية أو بالية، عبد أن كانت فردوسا من

فراديس الجنان، وهي طامة كبرى ظلت دمشق تعاني منها طويلاً. وزاد تيمور لنك الطين بلة بتجريد دمشق- كما مرّ بنا من صفوة صناعها ومهندسيها، إذ أخذهم معه إلى عاصمته سمرقند. وحاول سلاطين المماليك بعد خروجه من دمشق لحرب السلاجقة في آسيا الصغرى أن يعيدوا لدمشق والشام شيئا من الرخام بإلغاء المغارم والمكوس وكل ما كان يبهظهم من الضرائب الاستثنائية.

واستعادت دمشق مبانيها وعمارتها بعد تيمور، ولابد أن ظلت تعاني من خسائر الحريق وأنقاض عمائرها الباذخة فترة طويلة. وسرعان ما نسمع أنه أصبح بها مائة حمام. وشاد حكامها فيها قصورا فخمة على مر السنين، واتسع ذلك في بلدان الشام جميعا: من حلب شمالا إلى غزة جنوبا، وبدأ ذلك منذ أوائل عهدها بالإسلام لزمن الأمويين، فإن خلفاءهم وأمراءهم وبعض نسائهم شادوا في دمشق لأنفسهم قصورا باذخة، وامتد ذلك إلى حلب وغير حلب من مدن الشام والى البوادي. وظلت هذه العناية بتشييد القصور لحكام الشام على مر السنين، ومر بنا أن خمارويه بنى لنفسه بجوار دمشق قصراً، وتتابع بناء حكام دمشق وبلدان الشام للقصور، سوى ما كانوا يبنون من المساجد والخانقاهات والمارستانات والمدارس. وتحدثت المؤرخون طويلا عن قصر أنيق بدمشق بناه الظاهر بيبرس. وعُنى الصليبيون ببناء الحصون كما عنى الأيوبيون والمماليك ببناء المساجد والمدارس والرباطات والمارستانات والقلاع والجسور وكان لكل ذلك أثر واسع في نشاط الحياة بالشام ورواج الصناعة والتجارة.

وترزح الشام- كما رزحت مصر- تحت حكم العثمانيين، ويظلون بها أربعة قرون، ويتقوض كل أمل لأهل الشام في تدارك الأمور، وبدا ذلك الغزالي نائب سليم بما أخذ يفرض على أهل الشام من ضرائب ثقيلة، وزال حكمه كما مر بنا، وظلت المكوس تزداد وظلت البلاد تتردى من سيئ إلى أسوأ إذ دأب العثمانيون على التغيير السريع لحكامهم في البلاد، وداب الحكام على اعتصار خيراتها حتى آخر قطرة. وكانت الدولة العثمانية تدفع إلى استنزاف كل ما في ديار الشام من أموال وظلموا الناس اشد ظلم، بل نهبوهم أسعف نهب وابتزوا أموالهم أسوأ ابتزاز. وهيأ ذلك لمظالم لا تطاق في المدن بين الصناع والتجار وفي القرى وبين الزراع، مما جعل بعض الفلاحين يفرون من قراهم إلى الجبال أو ينزلون عن ممتلكاتهم فيها إلى بعض ذوى الجاه مفضلين أن

يعيشوا فقراء على معيشة الحرية التعسة المنتهكة. وانتكست بذلك الزراعة ولم تعد هناك عناية بإنتاج القطن والحرير، فانتكست أيضا الصناعة والتجارة. وزاد في انتكاس التجارة اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح واستعمارهم للهند وحملهم عروضها وتوابلها عن هذا الطريق مستغنين بذلك عن طريق الشام ومصر القديم. وبذلك فقدت الشام في أيام العثمانيين موردا ماليا ضخما كان على رأس مواردها التي أتاحت لحكامها بناء منشآتهم المعمارية الكثيرة من الأسوار والقلاع والحصون والقصور والمساجد والمدارس. وعم الكساد الشام طوال الحقب العثمانية. بل عم البؤس والظلم والخراب، كما عمت الفوضى الإدارية، وكلما تقدمنا دورة زمنية مع الحكم العثماني ازدادت الشام انتكاساً وفساداً وظل ذلك سائداً طوال زمن العثمانيين حتى القرن التاسع عشر بل حتى نهاية حكمهم.

obeikandl.com

٥

التشيع: الإسماعلية والإمامية- النصيرية- الدروز- الإسماعيلية النزارية أو الفداوية أو الحشاشين

(١) الإسماعيلية والإمامية

مرّ بنا- في كتاب العصر العباسي الثاني- أن عبد الله بن ميمون القداح اتخذ سلمية قرب حماه بالشام حوالي منتصف القرن الثالث الهجري مركزًا للدعوة الإسماعيلية التي كانت تجعل الإمامة بعد جعفر الصادق في ابنه إسماعيل لا في ابنه موسى الكاظم مخالفين بذلك فرقة الإمامية الإثنى عشرية الشيعية. وانتقلت بعد إسماعيل في أئمة مستورين، إلى أن فرّ المهدي بالله من سلمية إلى تونس وأسس هناك الدولة الفاطمية وصار إليها حكم مصر والشام منذ أواسط القرن الرابع الهجري. ونشط دعائهم في الديار الشامية يدعون إلى عقيدتهم التي تقصر إمامة المسلمين على أبناء علي بن أبي طالب من السيدة فاطمة الزهراء، زاعمة لهم العصمة وحق تأويل الذكر الحكيم ومعرفة أسراره، ولذلك سموا باسم الباطنية، وزعموا أن الأئمة يتوالون في أدوار كل دور يتألف من سبعة منهم، والسابع هو الإمام الناطق الممثل للعقل الكلي وإليه تنتقل قدرة الله وعنه تصدر النفوس الكلية للأئمة الستة قبله، وأطلقوا اسم الذات العلية وكل صفات الله على أئمتهم.

وعرفت الشام بجانب العقيدة الإسماعيلية العقيدة الإمامية أو الاثنا عشرية التي يتوالى في الإمامة بها عندهم اثنا عشر إماما يختمون بالإمام أبي القاسم محمد الذي اختفى وهو في الثامنة من عمره حوالي سنة ٢٦٠ ويؤمنون بأنه لا يزال حيا باقيا وأنه لابد من عودته يوما أو رجعته ليهدي الناس إلى طريق الرشاد ويعيد سنن الرسول صلى الله عليه وسلم ويرد حق أسرته المسلون ويملأ الدنيا حقا وعدلا، ويسمونه في أثناء غيبته الجسدية قائم الزمان وإمام الوقت. وهو بذلك كله المهدي المنتظر الذي ينقذ العالم من مفاسده وشروره. وعند الإمامية أن أئمتهم وحدهم يتميزون بمعرفة المعاني الباطنة أو المستترة وراء ظاهر النصوص القرآنية، ولذلك يعد التأويل من أسس العقيدة

الإمامية، ويرون أئمتهم فوق الطبيعة البشرية، ولذلك يعتقدون فيهم العصمة وأنهم مطهرون لا يستهويهم أي ضرب من ضروب المعاصي والآثام.

وإذا كان مركز العقيدة الإسماعيلية منذ أوائل هذا العصر في القرن الرابع مصر فإن مركز العقيدة الإمامية كان العراق وإيران. وكان قرب معتنقيها من الشام سببا في أن يدخلها كثيرون منه منذ وقت مبكر وكانوا ينبئون في حلب وأيضا بين بعلبك وصفد، ويسمون باسم المتوالية الإمامية ومنهم أمراء حرفوش. ونقف لنتحدث عن فرق شيعية غالية هي فرق النصيرية والدروز والإسماعيلية النزارية المسمون بالفداوية والحشاشين.

(ب) النصيرية[١]

فرقة شيعية غالية غلوا مفرطاً، ولم تكن تتبع الفرقة الإسماعيلية، بل كانت تتبع الفرقة الإمامية الإثنى عشرية، أو أقل إنها تفرعت منها، وكانت تسكن في قرى بسفوح الجبال الممتدة من طرابلس إلى أنطاكية أنشأها فيها داعية يسمى محمد بن نصير النميري زعم لهم أنه مبعوث الإمام الحادي عشر حسن العسكري وأخذ ينشر فيهم عقيدته منفصلا بها عن العقيدة الإمامية إذ جعل مبدأها أو محورها الأساسي ألوهية على بن أبي طالب وأنه خالد في طبيعته الإلهية ومسكنه السحاب، والرعد إنما هو صوته الهائل، والبرق إنما هو ضحكه العالي، ولا يلعنون ابن ملجم قاتله، بل يقولون إنه خلص اللاهوت أو الجزء الإلهي من الناسوت أو الجسم المادي، ويعظمون الخمر ويرونها من النور الإلهي، ويحتفلون بالأعياد المسيحية ويزعمون أن سلمان الفارسي إنما كان رسولاً لعلي بن أبي طالب، ويحلفون بعلي قائلين: وحق علي العليّ الأعلى، كما يحلفون بالنور قائلين وحق النور وما نشأ منه. وواضح أنه تختلط بعقيدتهم عناصر فارسية كعنصر النور وعناصر مسيحية كعنصر قداس الخمر والطعام وهو شبيه بالعشاء الرباني، ويرون عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلي: " لولا أن يقول الناس فيك ما قالوا في عيسى لقلت فيك مقالا" وهو حديث موضوع.

---

(١) انظر في النصيرية فرق الشيعة للنوبختي والملل والنحل للشهرستاني وصبح الأعشى ٣٥/١٣، ٢٤٩ والتعريف لابن فضل الله العمري ورحلة ابن بطوطة وحديثه فيها حين زار ديارهم بالشام عن عقيدتهم وكتاب العقيدة والشريعة في الإسلام لجولدتسهير ص ٢٢٠ وما بعدها وتاريخ النصيرية وديانتهم لدوسو طبع باريس.

obeikandi.com

ويقول النوبختي في فرق الشيعة ابن فضل الله في التعريف عنهم يحلون المحارم، ولهم كتاب مقدس يخفونه عن الناس كما يخفون عقيدتهم ولا يبيحون لأحد منهم أن يذيع شيئاً من مبادئها وأسرارها المصونة عندهم. ويقول الشهرستاني إنهم يقولون بأن عليا كان موجودا قبل ما خلق السموات والأرض، وأن الإله ظهر بصورته وخلق بيديه وأمر بلسانه. ولكل ما سبق قال جولد تسيهر: " تغلب على تلك الفرقة أفكار وعقائد وثنية" ويقول " إن إسلامها إسلام اسمي فحسب". ونظن ظنا أن استيلاء الفاطميين على الشام ونشر دعاتهم لنحلته الغالية المفرطة في الغلو هناك. ثم ما كان من انشغال الأيوبيين بحربهم لحملة الصليب، كل ذلك كان سببا في اتساع حركتهم حتى إذا كان عهد الناصر بن قلاوون رأيناه يكتب في سنة ٧١٧ للهجرة إلى ولاته في الشام أن يأخذوا على أيديهم، ويأمروهم أن يعمروا في كل قرية من قراهم مسجدا وأن يمحوا منها الخمور وكل ما يتصل بالآثام، وصدعت قراهم لأمره.

(جـ) الدروز[١]

الدروز فرقة شيعية تفرعت عن الفرقة الإسماعيلية الكبرى، آمنت بأن التجسد الهي حل في الحاكم بأمر الله (٣٨٦- ٤١١ هـ) أسسها أو أنشأها بالشام داع إسماعيلي أعجمي من دعاة الحاكم يسمى محمد بن إسماعيل الدرزي، وكان من غلاة الدعاة الباطنية يؤمن بالتناسخ، فأغوى الحاكم على ادعاء هذا التجسد، وصنف له كتابا ذكر فيه أن روح الله ما زالت تنتقل من رسول إلى رسول، وبعد النبي صلى الله عليه وسلم انتقلت إلى علي بن أبي طالب وتناسخت في الأئمة من أبنائه حتى انتهت إلى الحاكم، فهو ليس بشرا، إنما هولا هوت تجسد في الناسوت. وعلمت الرعية في مصر بما يوسوس له الدرزي فصممت على قتله، وأنقذه منها الحاكم وقال له اخرج إلى الشام وانشر دعوتك في الجبال فإن أهلها سريعو الانقياد، فخرج إلى الشام ونزل في قبيلة تنوخ بوادي التيم من وديان قرية بانياس غربي دمشق، ،اخذ ينشر دعوته في منازل تلك القبيلة بجبل حوران وأيضا في القسم الجبلي من لبنان. وتوفي فقام بالدعوة بعده حمزة بن أحمد الهادي وكثر أتباعهما وعُرفا بالدروز نسبة إلى مؤسس الدعوة. وانتشارها على

(١) راجع في الدروز صبح الأعشى ٢٤٨/١٣ وكتاب طائفة الدروز تاريخها وعقائدها للدكتور محمد كامل حسنين وجولد تسهير ص ٢١٦.

هذا النحو في جبل لبنان وحوران بسوريا جعلها تذيع بين قبائل وعشائر عربية، وسقطت إلى الجنوب حتى جبل كرمل بالقرب من صفد في فلسطين، وصعدت إلى الشمال حتى الجبل الأعلى بين حلب وأنطاكية. وأتاح لها ذلك أن تشيع بين عرب ذوي بأس وأهل شجاعة، ومنذ وطئت أقدام الصليبيين الشام وضعوا أيديهم في أيدي الدولة البورية صاحبة دمشق ثم في أيدي عماد الدين زنكي ونور الدين وصلاح الدين ضد حملة الصليب. وظلوا يجاهدونهم في زمن الأيوبين والمماليك متعاونين أوثق تعاون مع سلاطين الدولتين في طردهم من الشام. وأبلوا بلاء حسنا في حرب التتار. ولعل ذلك هو الذي دفع الدولتين إلى مسالمتهم والإبقاء عليهم مع إقرارهم على إقطاعاتهم، حتى يظلوا غُصة في حلوق أعداء الإسلام والعروبة.

ولديهم رسائل مقدسة لمؤسس دعوتهم محمد بن إسماعيل الدرزي وخليفته حمزة بن أحمد وتلميذه بهاء الدين. ويردد حمزة أن للحاكم بأمر الله حقيقة لاهوتية لا تدركها الحواس ولا الأوهام، ويقول إنه ليس له مكان وإن حل في كل مكان. وحاول هو وأستاذه الدرزي وتلميذه بهاء الدين أن يقنعوا الناس من حولهم بأن الحاكم تجسد إلهي وأنه يتشكل في صورة بشرية هي الصورة الإنسية التي عاش بها مع الناس كأنه فرد مثلهم. وليس الحاكم أول صورة بشرية تشكل فيها الله بل هو آخر صورة تجسد فيها، فقد تجسد قبله في الأنبياء والأئمة مما يفسح عند الدروز لفكرة التناسخ. ويصور القلقشندي عقيدتهم قائلا: " إنهم يقولون بأن الألوهية انتهت إلى الحاكم وتديرت (سكنت) ناسوته كما يقولون برجعته وإنه يغيب ويظهر بهيئته ويقتل أعداءه قتل إبادة لا معاد بعده إذ ينكرون المعاد". فلا معاد عندهم ولا بعث ولا قيامة، إذ القيامة في رأيهم يوم رجعة الحاكم وظهوره في صوره أناسوتيه، وحينئذ يوقع العذاب والثواب على النسا، أما الثواب فارتفاع بالدرجة في العلوم الدينية، وأما العذاب فهب بالدرجة إذ يستمر الشخص ينتقل من جسد إلى جسد أو قل تستمر روحه تنتقل في أجساد تهبط به في الدين درجة بعد درجة.

وتُسقط شريعة الدروز الفروض الدينية وتوجب صيام الأيام التسعة الأولى من شهر ذي الحجة، ويقول القلقشندي إنهم يذهبون مذهب الطبائعية في قولهم إن الطبائع هي المولدة، والموت بفناء الحرارة الغريزية كانطفاء السراج بفناء الزيت، ويقول: إنهم

زادوا في البسملة أيام الحاكم: باسم الحاكم الله الرحمن الرحيم، ثم جعلوها باسم الله الحاكم الرحمن الرحيم. ولهم أدعية خاصة يتجهون بها إلى ربهم، ومن ذلك ما نقله الدكتور محمد كامل حسين من رسالة البلاغ والنهاية في التوحيد لحمزة بن أحمد من مثل: " سبحان مولانا جلّ ذكره عن إحاطة الأشياء به وعز سلطانه عن حكومة الألسن والأوهام عليه لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون".

على أنه ينبغي أن نعود فنذكر أن عقيدة الدروز أصابها بعض التعديل في فروعها بما يتلاءم والإسلام ومن أهم من عملوا على ذلك عبد الله التنوخي الملقب بالسيد المتوفى سنة ٨٨٤ وقد حاول العودة بهم إلى مذهب الجماعة.

(د) الإسماعيلية[١] النزارية أو الفداوية أو الحشاشون

مرّ بنا في الحديث عن التشيع بغيران في الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي أن داعية من دعاة الحركة الإسماعيلية الفاطمية بإيران هو الحسن بن الصبّاح زار مصر لعهد المستنصر (٤٢٧– ٤٨٧ هـ) وسأله من الخليفة بعدك ؟ فقال له: ابني نزار، فعاد إلى إيران يدعو للمستنصر وابنه نزار، واستطاع مع طائفة من أتباعه أن يستولي على قلعة " الموت " الجبلية الشاهقة، واتسعت دعوته حتى مض إليه قلاعا وحصونا كثيرة بإيران وبعض بلدانها في قزوين وطبرستان. وكانت الأمور تتطور بالقاهرة فتوفي المستنصر ورأى ألافضل بن بدر الجمالي أن لا يولي نزارا بعده وإنما يولى أخاه المستعلى.وبذلك انقسمت الإسماعيلية الفاطمية قسمين: قسما عربياً في مصر والشام بيده مقاليد الحكم يدعو للمستعلى وقسما شرقيا في إيران يمثله الحسن بن الصباح يدعو لنزار.

واستطاع الحسن بن الصبّاح أن يحول فرقته أو طائفة كبيرة منها إلى فرقة إرهابية مهمتها اغتيال خصوم الدعوة من حكام الأقاليم والدول ووزرائهم ومن العلماء والفقهاء المناوئين لها، وكان ممن اغتالوه الوزير السلجوقي العظيم نظام الملك سنة ٤٨٤. ومن أجل ذلك أطلق على اسم هذه الفرقة اسم الفدائيين أو الفداوية كما غلب اسم الحشاشين

---

(١) انظر في هذه الفرقة وقلاعها بالشام ونشأتها صبح الأعشى ١٢١/١ و ١٦٤/٤ و ١٧٩ ورحلتي ابن جبير وابن بطوطة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٨٢، ٣٥٥، ٣٦٦ وكتاب طائفة الإسماعيلية: تاريخها. نظمها عقائدها للدكتور محمد كامل حسين.

لأنهم- فيما يظهر- كانوا يتعاطون الحشيش المخدر. وعمل الحسن بن الصبّاح على نشر الدعوة الإسماعيلية لا في أقاليم إيران فحسب، بل أيضا في إقليم الشام، فأرسل غليها دعاته، وبادر بإرساله الحكيم المنجم أسعد إلى حلب في أيام حاكمها رضوان بن تتش السلجوقي (٤٨٨-٥٠٧ هـ) فنشر بها الدعوة وكثر أتباعه وأوعز إلى بعض الحشاشين معه باغتيال جناح الدولة صاحب حمص، واغتيل سنة ٤٩٦. ووفد على حلب داعية ثان للحسن بن الصباح هو أبو طاهر واستولى مع شيعته على حصن فامية من الصليبيين ثم اسرتدوه منه. وأخذ الفدائيون من فرقة ابن الصباح يفدون على الموصل والشام واغتالوا في سنة ٥٢٠ صاحب الموصل آق سنقر. وفي نفس السنة وقد على دمشق نزاري من الموت، وتقرب من طغتكين صاحبها، وتنازل له عن قلعة بانياس فأخذ يدير دعوته منها، وكثر أتباعه، وأدخل المردغاني وزير بوري (٥٢٢-٥٢٦) في دعوته فعّين أحد رجاله، وهو أبو الوفاء قاضيا لقضاة دمشق. وبعث أبو الوفاء سرا بلدوين الثاني صاحب بيت المقدس أنه على استعداد لتمكينه من الاستيلاء على دمشق في نظير تنازله له عن صور، وقدم حملة الصليب إلى دمشق سنة ٥٢٤ لتنفيذ المؤامرة وفطن بوري فقتل أبا الوفاء ووزيره المردغاني، ورد الله حملة الصليب عن دمشق مدحورين.

وأخذ الإسماعيليون النزاريون في بانياس يمكنون لأنفسهم بالاستيلاء على طائفة من القلاع في السفوح الشرقية لجبال النصيرية بالقرب من طرابلس إلى الشمال بينها وبين حماة، حتى إذا خلص الأمر لرشيد الدين سنان منذ سنة ٥٥٨ أخذ ينظم هذه الجماعة الإرهابية الخطية جاعلا من قلاعها وهي مصيفا والرصافة وقدموس والخوابي والكهف والمينقة والعليقة، مركزاً للدعوة. ويُعد دوره في الدعوة بالشام كدور الحسن بن الصباح في غيران، فقد ضاعف تحصينات قلاعها وزودها بالسلاح والعتاد، وكان سنان مباينا لنور الدين ولم يحاول أن يساعده في حربه لحملة الصليب، وفكر نور الدين في منازلته ولكنه توفي قبل تحقيق فكرته. وبالمثل كانت بني سنان وصلاح الدين مباينه، وأرسل إلهي بعض فدائييه أو حشاشيه مرتين ليغتالوه ونجّى الله صلاح الدين من خناجرهم، وجرّد لهم في سنة ٥٧٢ جيشا جرارا حاصر به قلاعهم وضيق عليهم فسألوه الصفح عنهم، فأجابهم إلى ذلك ليتفرغ سريعا لحرب حملة الصليب مؤملا أن

يمدوا له يد العون في تلك الحرب، وكانوا قد وعدوه أن يقفوا معه ضدهم، فلم يتعرض صلاح الدين بعد ذلك لقلاعهم.

ونمضي معهم إلى أيام هجوم التتار على الشام فنجد داعيتهم آبا المعالي رضى الدين يرضخ لهم ويسلمهم بعض القلاع سنة ٦٥٨ بينما ظل الدروز يقاومون التتار– كما مرّ بنا– ولعل ذلك ما جعل الظاهر بيبرس بعد قضائه على التتار يفكر في الاستيلاء على قلاعهم منذ سنة ٦٦٤ وسرعان ما أعلنوا له الطاعة وأنهم جزء من رعيته. وفي سنة ٦٦٩ عزل داعيتهم نجم الدين وولي مكانة داعية ثانياً يسمى صارم الدين، غير أنه أعلن الثورة عليه، وسرعان ما أخفقت ثورته. وأخذ الظاهر بيبرس يستولي على قلاعهم حتى سلمت له وخضعت جميعاً، ولم يعمد إلى إجلائهم عن قلاعهم كما صنع هولاكو حين استولى على قلعة الموت وغيرها من قلاعهم بإيران، بل أبقى عليهم ليفيد من سفاكيهم في القضاء على خصومه. وظل سلاطين المماليك بعده يستخدمونهم لنفس الغاية.

ويسجل ذلك ابن بطوطة حين زار حصونهم لعهد الناصر بن قلاوون سنة ٧٢٧ إذ يقول: " وهذه الحصون لطائفة يقال لها الإسماعيلية، ويقال لهم الفداوية، ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم، وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عليه من أعدائه، ولهم المرتبات وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه ديته، فإن سلم بعد تأديه ما يراد منه فهي له، وإن أصيب فهي لولده". ويقول القلقشندي نقلا ع ابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة: " ولصاحب مصر بمشايعة الفداوية مزية يخافه بها عدوه، لأنه يرسل منهم من يقتله ولا يبالي أن يُقتل بعده، ومن بعثه السلطان إلى عدو له فجبن عن قتله قتله أهله إذا عاد إليهم، وإن هرب تبعوه وقتلوه". وبالقاهرة جامع منسوب إلى هذه الجماعة الإرهابية يسمى جامع الفداوية، ويقال إن الفداوي الإرهابي الخطير الذي كان يعتمد عليه بيبرس هو "شيحة " المدفون بدمياط.

٦

الزهد[١] والتصوف

الشام- من قديم- بلد دين سماوي، بل ديني سماويين هما اليهودية والمسيحية، مما جعل لها تأثيرا بعيداً في تاريخ العالم الروحي، إذ عملت بقوة على نقله من دور الوثنية إلى دور الديانات السماوية، وبدأ ذلك منذ أعتق الأزمنة ونقصد زمن إبراهيم الخليل عليه السلام الذي آمن بوحدانية الله، وحاول أن يحمل عليها قومه، وتتابعت بعده الرسل تؤكد دعوته وتدعو إلى عبادة الله وإعلاء القيم الروحية، حتى إذا كانت المسيحية وأدخلت فيها مصر نظام الرهبنة والمعيشة الخالصة لتعبد الله والنسك في الأديرة والصوامع عمت هذه الروح في الشام واعتزل كثيرون منه- في أيام الرومان الظالمة- الحياة اليومية العاملة إلى الرهبنة. وتعتنق كثرة السكان في الشام الدين الحنيف ويقبلون على تعاليمه وعباده الله الواحد الأحد حق عبادته وعلى ما تدفع إليه من النسك والتقوى، مقتدين بمن نزل بينهم من جلة الصحابة وبخاصة من أهل الصُفة الذين كانوا يلازمون المسجد النبوي مقبلين على عبادة الله زاهدين في الدنيا ومتاعها الزائل من أمثال بلال بن رباح مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم وأبي عبيدة فاتح الشام مع خالد بن الوليد، وكان على غرارهما زهدا في الدنيا معاذ بن جبل المتوفى مع أبي عبيدة فاتح الشام مع خالد بن الوليد، وكان على غرارهما زهدا في الدنيا معاذ بن جبل المتوفى مع أبي عبيدة في سنة ١٨ للهجرة بطاعون عمواس، ويؤثر عنه أنه كان يقول حين نزل به القضاء: " مرحبا بالموت، مرحبا بزائر حبيب جاء على فاقة، اللهم إنك تعلم أن كنت أخافك، وأنا اليوم أرجوك، وإني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها

---

(١) انظر في الزهد والتصوف بالشام كتب تراجم الصحابة، وبخاصة من سمناهم، وراجع في معاذ تهذيب النووي وفي أبي الدرداء البيان والتبيين للجاحظ: الجزء الثالث (انظر الفهرس) وانظر في الأسماء التالية طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمى والطبقات الكبرى للشعراني والرسالة القشيرية (طبعة عبد الحليم محمود) وكشف المحجوب للهويري (الترجمة العربية) وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر وأحسن التقاسيم للمقدسي والسلوك للمقريزي والدرر لابن حجر والأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام الجزيرة، الجزء الخاص بمدينة دمشق (تحقيق د. سامي الدهان) ووفيات الأعيان وفوات الوفيات في تراجم بعض المتصوفة والزهاد وابن تغري بردي والبدر الطالع للشوكاني وروض الرياحين لليافعي وخالصة الأثر للمحبي وسلك الدرر للمرادي وتاريخ الجبرتي وجولد تسيهر ودائرة المعارف الإسلامية والجزء الرابع من تاريخ الأدب العربي لبروكلمان.

obeikandi.com

لكـرى الأنهـار ولا لغـرس الأشـجار ولكـن لظمـأ الهـواجر ومكابـدة السـاعات ومزاحمـة العلماء بالرُكب عند حلقات الذكر".

وعلـى شـاكلة معـاذ فـي الـورع والتقـوى مـن صـحابة رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم الـذين هـاجروا إلـى الشـام أبـو الـدرداء الأنصـاري، وهـو أحـد حفظـة القـرآن الكـريم لعهـد الرسـول وأول مـن تقلـد القضـاء بدمشـق الـى أن تـوفي سـنة اثنتـين وثلاثـين للهجـرة، وهـو مـن أهـل الصـفة الأتقيـاء، ويـروى الجـاحظ عنـه انـه كـان يقـول " نعـم صـومعة المـؤمن منـزل يكـفُ فيـه نفسـه وبصـره، وإيـاكم والجلـوس فـي الأسـواق فإنهـا تلهـي وتحمـل علـى اللغـو فـي الكـلام" ويـروى عنـه أيضـا قولـه " " أضـحكني ثـلاث وأبكـاني ثـلاث: أضـحكني مؤمـل الـدنيا والمـوت يطلبـه، وغافـل لا يُغفـل عنـه، وضـاحك ملـئ فيـه ولا يـدري سـاخط ربـه أم راض، وأبكـاني هـول المطلـع[1]، وانقطـاع العمـل، ومـوقفي بـين يـدي الله لا يُـدري أيـؤمر بـي إلـى الجنـة أم إلـى النـار". وأخـذ يتكـاثر بعـد جيـل الصـحابة فـي الشـام العبـاد والأتقيـاء ونلتقـي بهم في كل طائفة: في القضاة والفقهاء والمحدثين وقراء الذكر الحكيم.

واتسـع ذلـك حتـى شـمل بعـض الحكـام علـى نحـو مـا هـو معـروف عـن الخليفـة عمـر بـن عبـد العزيـز وهـو يمثـل نمـوذج الحـاكم المتقشـف الزاهـد الـذي يخشـى الله فـي كـل مـا يصـدر عنـه مـن قـول أو فعـل، ومـرّ بنـا أنـه رفـع المكـوس وضـرائب السـدود والمعـابر عـن النـاس وأنـه سـوّى بـين المسـلمين الجـدد مـن المـوالى والمسـلمين مـن العـرب فحـط عـنهم- مـثلهم الجزيـة- واكتفـى بالزكـاة. وكتـب إليـه أحـد عمالـه:إن أهـل الذمـة قـد أقبلـوا علـى الإسـلام حتـى يتخلصـوا مـن الجزيـة، فأجابـه: إن الله بعـث محمـدا داعيـا ولـم يبعثـه جابيـا. ويفـيض ابـن سـعد فـي ترجمتـه لـه بطبقاتـه فـي بيـان زهـده ورفضـه لمتـاع الجبـاة مـن رقيـق يملكـه ومـن عطـر يتطيـب بـه. وعمـل بكـل جهـده علـى نشـر العـدل فـي دولتـه ورفـع المظـالم عـن النـاس. وكـان يجهـد نفسـه فـي النسـك والتعبـد حتـى اصـفرّ لونـه ونحـل جسـمه، وأنكـر منـه بعـض الزهـاد ممـن كـانوا يلمـون بـه ذلـك فقـال لـه: كيـف بـك لـو رأيتنـي فـي قبـري وقـد سـالت الحـدقتان- بعـد ثـلاث ليـا- علـى وجنتـي وتقلّصـت الشـفتان لكنـت إذن اشـد نكـرا. وطبيعـي أن يكـون عمـر مـن أسـباب اتسـاع موجـة الزهـد فـي الشـام. ونكتفـي بـذر بعـض مـن تمـوج بهـم كتـب القـراء والفقهـاء والتـاريخ مـن هـؤلاء الزهـاد العبـاد. مـن ذلـك مـا يقولونـه عـن

---

(١) الاستشراف للآخرة.

شيبان الراعي المتوفى سنة ١٥٨وكان من كبار الفقهاء الزهاد وكان من أكابر أهل دمشق وعكف على النسك، وبلغ به ذلك أن ترك الدنيا واتخذ له صومعة في جبل لبنان فانقطع بها يتعبد الله.

ونسمع كثيراً عن عباد انقطعوا بهذا الجبل مؤثرين الإقامة به للتعبد [١]، ومنهم من كان يتعبد الله في جبال أنطاكية والمصّيصة، ومنهم من يتخذ الصوامع، وظل ذلك متعبا حتى زمن ابن جبير [٢]. وكان منهم من لا يبعد عن دمشق إلى الجبال الثانية مثل فهر بن جابر الطائي المتوفى عام ٢٢٠ فإنه لما بلغ الخمسين من عمره اعتزل الناس بجوار دمشق، وأخلص نفسه للتقوى والنسك، وله في الزهد كتاب سماه: "العروج في درج الكمال والخروج من درك الضلال. ونلتقي بمعاصره أبي سليمان الداراني عبد الرحمن بن أحمد بن عطية المتوفى سنة ٢١٥ وفيه يقول ابن تغري بردي: "كان من واسط وتحول إلى الشام ونزل قرية دارياً غربي دمشق، وكان إماما حافظا كبير الشأن في علوم الحقائق والورع أثنى عليه الأئمة، وكان له الرياضات والسياحات، ويقول الهجويري: "كان ريحانة القلوب، اختص بالرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة". وتسلكه كتب الصوفية، في تراجمهم. ولم يكن التصوف حتى زمنه استقل عن الزهد بأحواله ومقاماته، فهو إلى أن يكون زاهدًا أقرب منه إلى أن يكون متصوفا. وحمل عنه نزعته النسكية تلميذان أو مريدان، هما أحمد ابن عاصم الأنطاكي وابن أبي الحواري الدمشقي، أما ابن عاصم فتوفي بعد أستاذه بخمس سنوات، ويسلكه المتصوفة بين أوائلهم ويقولون إنه كان يجمع بين الأصول والفروع في الشريعة، وكان يقول: "انفع الفقر ما كنت به متجملا وعنه راضيا" ويذكر بروكلمان له كتابا في الزهد سماه" دواء القلوب ومعرفة همم النفس وآدابها" ويقول إن الغزالي ينقل عن هذا الكتاب كثيراُ. وتلميذ الداراني الثاني أو مريده ابن أبي الحواري أحمد توفي سنة ٢٣٠ وكان من بيت زهد، فأبوه من الورعين وكذلك ابنه عبد الله، وذُكر عند الجنيد متصوف بغداد فقال: " ريحانة

---

(١) راجع مقدمة أحسن التقاسيم للمقدسي.

(٢) يقول ابن جبير في كلامه عن دمشق سنة ٥٧٨ كان الخير ينثال على الغرباء من الخطباء والمعلمين لا في دمشق وحده بل أيضا في القرى والضياع، ومن سئم المقام فيها متى سئم المقام يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودى (شمالي الموصل) فيلقي بهما المريدين المنقطعين إلى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء وينصر إلى حيث شاء.

الشام ". وكان يعاصره الشيخ أبو عبيد وان عابدا تقيا صالحاً توفي سنة ٢٣٨ وقد وهب نفسه للغزو وجهاد أعداء الله.

ونلتقي في طرسوس دار حرب الروم بالشيخ أبي الحارث الفيض بن الخضر الأولاسي المتوفى سنة ٢٩٧ وكان أحد الزهاد العباد وله إشارات ولسان حلو وأقوال عالية، وهو منسوب إلى أولاس في نواحي طرسوس، وكان بها حصن يسمى حصن الزهاد، وكأنما اتخذوه رباطا لحرب أعداء الإسلام. وهو شاهد على ما قلناه مرارا في كتاباتنا من أن زهادنا ومتصوفتنا كانوا دائماً يرون من تمام تصوفهم وزهدهم أن يجاهدوا العدو ويرابطوا له في الثغور، حتى إذا كان نفير الحرب تقدموا الصفوف يقتلون أعداء الدين الحنيف ويستشهدون. وكان يعاصر الأولاسى أحمد بن يحي المعروف باسم ابن الجّلا المتوفى سنة ٣٠٦ تلميذ ذي النون المصري مؤسس التصوف الإسلامي كما سنذكر ذلك في حديثنا بجزء مصر، وتلمذته لذي النون تجعله أول متصوف شامي بالمعنى الحقيقي. وكان ذو النون يجمع بين الشريعة وفرضوها وبين الحقيقة الصوفية الروحية، فلا تعارض ين الشرع والتصوف، بل هما متلاحمان، وعنه أخذ ذلك ابن الجلاء كما أخذ بقية مبادئه الصوفية من التوكل والحب الإلهي. ويقول ابن تغري بردي إنه أحد مشايخ الصوفية الكبار، ويقول مريده وتلميذه الرقي محمد بن داود: " لقيت نيفا وثلاثمائة من المشايخ المشهورين، فما لقيت أحدا بين يدي الله وهو يعلم أنه بين يديه أهيب من ابن الجلاء". وعاش الرقي بعده في الشام إذ توفي بعد سنة ٣٥٠. ومن مريديه وتلامذته في الشام أبو عمرو الدمشقي المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يقول: " التصوف رؤية الكون بعين النقص بل غض الطرف ع كل ناقص ليشاهد من هو منزه عن كل نقص " يريد تعلق التصوف بالرؤية الإلهية التي يغض فيها المتصوف بصره عن كل ما يشاهده في الكون أملا في أن يفني في الذات الربانية، وذكر مترجموه أن له كتابا في الرد على القائلين بقدم الأرواح.

ومن كبار المشايخ في الشام أحمد بن عطاء الروذباري المتوفى سنة ٣٦٩ وهو ابن أخت أبي على الروذباري شيخ الصوفية في الفسطاط، أما هو فكان شيخ الشام في وقته، وكان ممن جمع بين الحقيقة وعلم الشريعة. ودخل الشام محمد بن خفيف الشيرازي شيخ المشايخ المتوفى سنة ٣٧١ ويحكي أنه: "دخل مدينة صُور وهو جائع

عطشان وفي وسطه خرقة المتصوفة، يقول: فدخلت المسجد، فإذا شابان مستقبلا القبلة فسلمت عليهما فما أجابني، فقلت ناشدتكما الله إلا رددتما علىّ السلام، فرفع أحدهما رأسه من مرقّعته الصوفية فنظر اليّ ورد السلام وقال لي: يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل، فخذ من القليل الكثير، فذهب جوعي وعطشي ونصبي (تعبي) فلما كان وقت العصر قلت له: عِظني، فقال: يا بن خفيف: نحن أصحاب المصائب ليس لنا عظة. وربما كان أهم تلامذة أحمد بن عطاء الروذباري ومر يديه محمد بن إبراهيم السوسي شيخ الصوفية بدمشق المتوفى سنة ٣٨٦ وكان زاهدا عابدا ما عقد على درهم ولا دينار. وظل كثيرون من العباد والنساك يؤثرون جبال الشام ويقيمون بين ربوعها ويذكر المقدسي الجغرافي المتوفى حوالي سنة ٣٧٥ أنه لقي في جبل الجولان شرقي الشام أبا إسحق اليبلوطي في أربعين رجلا يقتاتون البلوط، يفلقونه ويطحنونه ويخلطونه بشعير بريّ ويلبسون الصوف. وينبغي أن نذكر أن المتصوفة كانوا غالبا لا يستقرون في أوطانهم، بل يرحلون سائحين للقاء مشايخ الصوفية، ومعنى ذلك أن الشام كانت تستقبل كثيرين منهم. وكان يحدث كثيرا أن يتخذوها دار مقام كما صنع الداراني الواسطي وأحمد بن عطاء الروذباري، وغيرهما كثيرون مثل الختلي نزيل الشام المتوفى سنة ٤٥٣ وهو أستاذ الهجويري الغزنوي ألافغاني، وكانت أكثر إقامته بالديار الشامية. ومعنى ذلك أن الشام كانت دائمة ساحة كبرى للنسك والتقوى والعبادة.

وما نصل إلى سنة ٤٨٨ حتى ينزل الإمام الغزالي الطوسي الصوامع النائية في مساجد بيت المقدس، وكانت قد انتابته أزمة روحية من الخلافات العنيفة بين الفرق والملل وحتى بين الفقهاء في فروع الشريعة. وقد أوضحنا ذلك في حديثنا عن الزهد والتصوف بإيران في الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي وكيف أخذ يحمل على الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة، وحمل على فرقة الإسماعيلية الشيعية حملة عنيفة في كتابه " فائح الباطنية". وكان قد رأى في موطنه ضعف الوازع الديني عند طوائف الصوفية، وأن جماعات منهم كانت تُسقط عن نفسها الفرائض الدينية، بينما كان منهم من يؤمن بالحلول والاتحاد بالله والفناء فيه. وكل ذلك أشعل بينهم وبين الفقهاء حربا شعواء، وأخذ الغزالي يفكر في كل ذلك على هدى ما كتبه أبو نصر السراج والقشيري في رسالته، وروى أنه لابد من الوصل بين التصوف والشرع، فلا تصوف بدون

الفرائض والنوافل ولا صلاة بدون عمل القلب والإخلاص وصدق السريرة، وأخذ يؤلف موسوعته الرائعة " إحياء علوم الدين " بقصد تنمية الجوانب الروحية في الفرائض الشرعية وبيان الوسائل إلى ذلك بحيث تصل النفس إلى مبتغاها من محبة الله. وأتم الكتاب في دمشق. واستقبلته استقبالا عظيما لأن متصوفتها لم يكونوا قد انحرفوا بتصوفهم إلى مزالقة التي وصفناها في إيران، بل كانوا دائما يجمعون بين التصوف والشريعة، إلا من دفعته السياحة إلى ديارهم من متصوفة إيران.

على كل حال كانت إقامة الغزالي بدمشق وبيت المقدس فاتحة التئام وثيق بين الفقهاء والمتصوفة، وزاد هذا الالتئام توثقا نزول حملة الصليب بديار الشام، ولعل ذلك ما جعل حكامها التابعين للدولة السلجوقية يأخذون في العناية ببناء الخانقاهات للمتصوفة، من ذلك بناء دقاق بن تتشي لخانقاه الطواويش بدمشق.ودعم هذا التصوف السني عناية نور الدين ثم صلاح الدين وسلاطين الحكم الأيوبي ونساؤهم وأمراؤهم ببناء الخانقاهات والربط في ديار الشام ووقف الرواتب والمال التي تنفق على متصوفتها عن سعة. وقد عدّ ابن شداد في الجزء المنشور من كتابه الأعلاق الخطيرة الخاص بدمشق خانقاهاتها وحدها فبلغت تسع عشرة وبالمثل عدر باطاتها فبلغت أيضا تسعة عشر رباطا. وكان لا يزال يخرج منها صفوف وجنود لجهاد حملة الصليب. وفي هذه الأثناء ظهرت ببغداد طريقة صوفية سنية هي الطريقة القادرية لمؤسسه الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ واعتنقاها كثيرون لا في العراق وحدها بل أيضا في الشام والبلدان العربية. وتبعها ظهور طريقة صوفية سنية ثانية هي الطريقة الرفاعية لمؤسسها الشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ وانتظم فيها كثيرون في العراق والشام وشاعت سريعا في العالم العربي.

ومعنى ذلك أن التصوف السني الجامع بين علم الحقيقة أو علم التصوف وبين علم الشريعة أو علم الفقه وما يتصل به من السنة تدخلت عوامل كثيرة في أن يكون هو التصوف الشائع في الديار الشامية. وحاول التصوف الفلسفي القائم على أفكار الحلول والاتحاد بالله أن يتسرب إلى الشام عن طريق يحي السهرودي الغيراني، وكانت له فلسفة صوفية إشراقية ألممنا بها في حديثنا عنه في الفصل الرابع من قسم إيران، وذكرنا هناك بأنه كان يؤمن أن النبوات لا تنقطع وان الحكيم الصوفي من أمثاله أفضل

من الأنبياء، وكفرّه فقهاء حلب وحملوا الملك الظاهر بن صلاح الدين على قتله، فقتله سنة ٥٨٧ للهجرة.

وكان من أثر دخول الشعوذة على التصوف، وخاصة في إيران، ظهور فرقة بدمشق سنة ٦١٩ تسمى القلندرية وهم أتباع قلندر يوسف، لا يتقشفون ولا تنسّكون ولا يصلون سوى الفرائض، ويحلقون لحاهم وحواجبهم. وتسرّب ثانية إلى الشام جدول صوفي فلسفي زاخر على لسان محيي الدين بن عربي المولود بمرسية في الأندلس سنة ٥٦٠ وقد تلقى تعاليمه في إشبيليه وفارقها في الثلاثين من عمره إلى المشرق لحج بيت الله الحرام. وظل في مكة فترة ثم بارحها مطوفا في البلاد العربية ودخل الأناضول " وألقى عصاه بدمشق وبها توفي سنة ٦٣٨". وكان إماما في التصوف الفلسفي القائل بوحدة الوجود وصنّف كثيرا من الكتب أهمها الفتوحات المكية والفصوص، وله غير ديوان، ومن أهم دواوينه ترجمان الأشواق، وكان شاعرا مبدعا كما كان كاتبا بارعا. وعلى الرغم من اتجاهه الفلسفي في التصوف استطاع أن ينجو من العامة والفقهاء، فلم يحكموا عليه بالكفر أو الإلحاد كما حكموا على السهر وردي، بل لقد وجد بينهم مريدين كثيرين مما هيأ فيما بعد لكي يظل التصوف الفلسفي- على قلة- حياً بجانب التصوف السني، وكانت عباراته في كتاباته تحتمل ظاهرا وباطنا، ظاهرا مع السنة وباطنا مع التصوف الفلسفي، وجعل ظاهرها كثيرين يبرئونه من تهمة الإلحاد على نحو ما مر بنا في مصر عند الشعراني.

وتُعنى دولة المماليك بالخانقاهات والرُبط وزوايا المتصوفة، وترصد لها أموالا كثيرة، مما كان سببا في ازدهار التصوف وازدياد طرقه بجانب طريقتي القادرية والرفاعية السالفتين، فشاعت فيه كما مر بنا آنفا الطريقة القلندرية. ودخلته الطريقة المولوية، ومؤسسها جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٣ وتبع هذه الطريقة كثيرون. ونزل اشما عفيف الدين التلمساني المتوفى سنة ٦٩٠ وكان صوفيا فلسفيا يؤمن بمذهب وحده الوجود واحتمله فقهاء الشام فيما يبدو لحسن عشرته.

ولعل فقيها لم يحمل على الصوفية كما حمل ابن تيمية الحنبلي المتوفى سنة ٧٢٨. وكان يحمل على أصحاب التصوف الفلسفي. وهذا طبيعي. وحمل أيضا على أصحاب التصوف السني من أتباع الشيح أحمد الرفاعي لما كانوا يأتون من أعمال

شاذة كنفوذهم من النار المضطرمة، وأكلهم الحيات وهي حية، ولبسهم أطواق الحديد الثقيلة في أيديهم ولفهم شعورهم وتلبيدها. وثار عليهم ثورة عنيفة بدمشق واجتمع الناس إليه، فذهب بهم إلى نائب السلطان وعرّفه ما تصنعه هذه الطائفة من بدع عجيبة، فأمرهم بالكف عنها. أما أصحاب التصوف الفلسفي وما يتصل به من القول بالحلول ووحدة الوجود فقد أشعل ابن تيمية ضدهم نارا حامية ظل يُذكيها بوقود جزل يزيدها لهاب واضطراما، واصطلى النار الباجريقي محمد بن عبد الرحمن، وكان قد تزهد وتصوف فصحبه جماعة من الأراذل فهوّن لهم أمر الشرائع وأراهم بوارق شيطانية، وكان يقول لهم: إن الرسل طولت على الأمم الطريق إلى الله تعالى " وزعم أنه وصل في سلوكه إلى السماء الرابعة، وحُكم عليه بإراقة دمه فاختفي إلى أن مات سنة ٧٢٤. ودعا إلى مقالاته بعده متصوف من متصوفة خانقاه السميساطية بدمشق يسمى عثمان بن عبد الله الدوكالي، وشاع أمره فقُبض عليه، وكان ممن شهد عليه فقيهان كبيران هما المزّي والذهبي، فحكم عليه بالقتل سنة ٧٤١.

وشاعت في الشام لأواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجري الطريقة النقشبندية، ومؤسسها محمد النقشبنيدي المتوفى سنة ٧٩١. وأخذت تشيع معها لأواخر زمن المماليك الطريقة البكتاشية التي تدين بالنظريات الحلولية ولا تقيم وزنا للسنن والفرائض الدينية وتقدس عليا والأئمة من بعده. ومنذ القرن الثامن الهجري نحس بوضوح أن العامة تخضع لمشايخ الطرق الصوفية بأكثر مما تخضع للفقهاء وعلماء الدين ربما بسبب خضوعهم للحكام بخلاف مشايخ الطرق الصوفية فإنه لم يكن لهم أي تعلق بالدنيا وكانوا يكتفون بما يجري على خانقاهاتهم من أموال ولم يكن الشيخ يمد يده للحاكم يأخذ منه مالا. وكانوا كثيرا ما يحملون على الحكام إذا رأوهم انحرفوا عن الطريق السويّ. وتحول كثير من أتباعهم إلى دراويش يطوفون في العالم الإسلامي، وكان لهم أثر غير قليل في حِفاظ العامة على الروح الإسلامية.

ونمضي إلى زمن العثمانيين فتنشط الطرق الصوفية لاهتمامهم بها ورعايتهم لها، وتشيع معهم الطريقة الخلوتية، ويعظم أمر الدراويش ويكثرون في العالم الإسلامي. ومما لا شك فيه انه كانت تكثر الطرق الصوفية المخلصة التي تعني بالنسك والعبادة، وإن كان من الحق انه أساء إلى هذه الطرق الدراويش المتسولون الذين كانوا يتكففون

النـاس. وهـم دراويـش رُحـل كـانوا يعيشـون معيشـة مطلقـة، وقـد يتحللـون فيهـا مـن الفـرائض الشـرعية. وبـدون ريـب كـان بيـنهم مـن يتخـذ الدروشـة خـداعا للنـاس ووسـيلة إلـى البطالـة. ومـع ذلـك لا نعـدم أن نجـد مـن حـين إلـى حـين صـوفيا حقيقيـا يحـول النفـوذ إلـى معرفـة أسـرار الكـون وخبايـاه والـتخلص مـن عـالم الحـس المـادي للفنـاء فـي عـالم الحقيقـة والحـب الإلهـي، علـى نحـو مـا نجـد عنـد عبـد الغنـي النابلسـي المتـوفى سـنة ١١٤٣ للهجـرة وقـد تقلـب بـين الطـرق الصـوفية وعكـف علـى دراسـة أئمـة التصـوف الفلسـفي وغيـر الفلسـفي، ولقـي كثيـرا مـن شـيوخ الصـوفية فـي لبنـان وفلسـطين ومـدن الشـام والحجـاز ومصـر، وكـان شاعرا كما كان ناثرا.

obeikandl.com